دكتور

عادل صادق

خضـــوع امـــرأة

[مؤسسة حورس الدولية]



د. عادل صادق

خضوع امرأة

الناشـــــــر :

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع

١٤٤ ش طيبة ـ سبورتنج ـ الإسكندرية.

ت/ فاكس : ٠٣/٥٩٢٢١٧١ ـ ٠٣/٥٩٣٠٥٩٨

الطبعــة الأولـــى

(٢٠٠٥)

اسم المؤلف	: د/ عادل صادق.
اسم الكتاب	"خضوع امرأة".
مراجعة لغوية	: عبد الرحمن الجبالي.
رسوم الغلاف	: ممدوح طلعت.
كمبيوتر جرافيك	: أحمد أمين.
إخراج فني	: سعيد شحاتة.
مدير النشر:	: مصطفى غنيم.
رقم الإيداع	: ١٨٤٤٧/ ٢٠٠٤
الترقيم الدولى	: 977-368-043-6

ثلاثي العظمة :

القلـــب القـــادر علـــى الحـــب..

والعقـــل القـــادر علـــى الحكـــم..

والضمير القادر على ضبط الأهواء

د. عادل صادق



محتويات الكتاب

السيدة المكتنزة والطفلة النحيلة

هـــي ليســـت قلوباً قاسية كالحجارة وليست أشدُ قسوة ولكنها نفـــوس مهـــزوزة والهزيمة تولد عنفاً مضادًا، ولا تخشى إلا عدواناً مهزوما.

وأصعب هزيمة هي التي تصيب صميم الذات.. أي الأنا والكيان.. حيـــن يصـــبح الإنسان لا شيء أمام أضعف الناس وأبسطهم، تثور ثائـــرته ويُجَنُّ جنونُه ويهبط إلى اسفل دَرْك محطماً ومدمرًا، جارحاً ومحـــرقاً، ولا تهدأ روحه المدنَّسة إلا بأنَّات الضعفاء البسطاء الذين يقعون في نطاق سطوته.

بعض الناس يولدون بدون جهاز للعواطف فيقْسون لا يأبَهون بالغير، ولا يتَورَّعون عن الإيذاء، ويعتبر هذا تشوهاً في الإنسانية أو ضعفاً خلقياً..

ولكـــنهم لا يرتكبون جريمة الإضرار بالغير إلا بهدف البغي والنهـــب وتحقيق اللذة الفورية الحسية والمادية.. إن عدوانَهم مرتبط بتحقـــيق مـــنفعة شخصية.. لا يتبعون مبدأ الإيذاء لمجرد الإيذاء ولا يتلذذون بتعذيب الآخرين.. إنهم فقط أنانيون نرجسيُّون لا يفكرون إلا

في أنفسهم ويُلْغون الآخرين، أو يستخدمونهم أدوات لتحقيق مصالحهم ومنافعهم الشخصية وإرضاء شهواتهم.

يسرق.. يكذب.. يغش.. يخدع.. يصب يرور. يهشم.. عظام الآخرين لكي يتخطاهم ويصل إلى اعلى وأعلى، محققاً المجد والشهرة والثراء.. ولذا فهؤلاء الناس لا تراهم إلا على القمة.. والسلالم التي يستخدمونها في الصعود هي ظهور الناس وأكتافهم ورقابُهم ثم يتخلصون منهم.. وهم أصحاب مبدأ الغاية تبررُ الوسيلة حتى وإن كانت أخسُّ الوسائل وعلى حساب مشاعرهم وحياة ومصالح الآخرين.. وهؤلاء ينامون بعمق ولا يعتريهم قلقٌ ولا يُداهمهُم الاكتئاب وذلك لأنهم معدومو المشاعر. مولودون بجهاز للعواطف غير صالح للعمل.

وهؤلاء هم الذين يجعلون الحياة صعبة لأنهم ينهبون الحقوق ويدهسون النفوس ويكسرون الضلوع ليفتتوا القلوب.. إنهم السيكوباتيّون

وهناك آخرون يولدون بمرض التلذذ بالقسوة المصاحب بنشوة نفسية وجسدية حين يوقعون الألم بالآخرين وينتشون بآهاتهم وصراخهم وبِ حبدا ودماؤهم.. إنهم الساديون، إنه العنف المصحوب باللذة، أو اللذة التي لا تتحقق إلا بالعنف ويكون منظر الدماء وهي تسيل مثيراً، ومُبهجاً ومحرّك لكل الغرائز وأعذب صوتٌ هو صوت إنسان آخر يتلوى من الألم.



وهـناك إنسان آخرُ قسوتُه تتَبدَّى حين ينتقم.. وهو إنسان لديه كـمٌّ مـن العقد النفسية مما يجعله شديدَ الحساسية فإذا مسه أحد فإنه يـتحول إلـى ثور هائج يطيح بعنف بمن حولَه.. ولا توجد لذة هنا ولكـن شفاء للنفس التي تظن أن إهانة لحقت بها فتستشيط وتضرب بلا رحمة حتى تُجْهِزَ على ضحيتها وتمحوَ أثرها ماديّاً ومعنويّاً.. إنه الاضـطهاديُّ المنـتقم العنيف الذي يحمل للناس عداوة وكراهية في قلـبه، ويشـعر بـأنهم يتآمرون ضده ويشوّهون صورته ويُضرُّون بسلطانه أو حاله.

وهو دائما منتفخ ليغطيَ على عيوبٍ في شخصيته وثقوب في عقله.. ولذا فهو دائم الإسقاط فيتهمُ الآخرين ويقلل من قدرتهم ويحط مـن شـأنهم ويهددهم ويتوعدهم ويحطم رءوسهم إذا اقتضى الأمر، وذلك لو حاولوا الاقتراب منه.

ولكن يظل هناك نوعٌ آخرُ من القسوة لا نفهم مبرراتِها بسهولة بل لا تصدق أنها قد تحدث، ولا نتصور أيضاً قدر الإيذاء الذي يتعرض له البعض.

إنه شيء يفوق التصور فعلاً.. شيء تقشعر منه الأبدان.. شيء يثير الخوف في نفوسنا.. ليس خوفاً من القسوة ذاتها أو احتمال أن تنالنا، ولكنه الخوف الناشئ عن تصور أن يكون هناك بشر وصلوا إلى هذه الدرجة من الانحطاط الإنساني حين يتفننوا في تعذيب الضعفاء والبسطاء.. وهو تعذيب لا يمكن أن يوصف.. وهي ليست قسوةً من أجل تحقيق مآربَ شخصيةٍ كما في حالة السيكوباتي.. وهي ليست قسوة الانتقامِ العارم كما في حال الإنسان الاضطهادي البارنويد.. ولكنها قسوة من نوع آخر.. إنها حدود القسوة.. إنها اللا إنسانية المطلقة ولا توجد حيوانية تدانيها.

ونعجب كيف يكون بشر بهذه الصورةِ البشعة!! ولكنها حكمة الله.. وما ذنب الضعفاء والبسطاء الذين يتعرضون لمثل هذا النوع من القسوة!! ولا نملك أيضاً إلا أن نقول إنها حكمة الله.

وليس من تفسير إلا أن هؤلاء الذين يمارسون هذا النوع من القسوة هم مهزومون.. مسحوقون.. إنها الذات المهلهلة والكيان الملغِيُّ.. إنه الإنسان الصفر.. إنه الإنسان الذي يشعر بأقصى درجات الدونية أمام الآخرين حتى ولو كانوا بسطاءَ فقراءَ.. إنه ذلك الإنسان الذي يعرف في قراراته أنه لا يحظى إلا باحتقار كلِّ الناس رغم اقترابهم

مـــنه وتعاملهم معه ربما لجماله أو ماله أو سلطانه وهو يعرف تماماً أنـــه إذا زالت عنه هذه الميزاتُ فلن يقترب منه أحد وسينبذُه الجميع ولذا فهو يحسد أي إنسان يحبه الآخرون دون أن يقدم شيئاً.. أي حب غير مشروط.. إنه يحسد البسطاء مرفوعي القامة.. إنه يحسد الفقراء الذيـــن يتلذذون بطعامهم القليل البسيط، والذين ابتاعوه بدراهم قليلة.. إنـــه يحســـد المعتزين بأنفسهم الفخورين بكرامتهم رغم أنهم أتوا من الطبقات الدنيا.. ومن هنا تتولد لديهم مشاعرُ عدائيةٌ شديدة الحدة تجاه البســـطاء.. إن أي إنسان مهما كان متواضعاً في درجته الاجتماعية لَـــيَهزُّهم هـــزاً عنيفاً.. فرغم أنهم يملكون كل شيء فإن هذا الإنسان البســـيط الـــذي لا يملـــك أي شـــيء يـــتفوق عليهم.. ولذا يشعرون بالهـــزيمة.. بالانســـحاق من الداخل.. ما أسوأ أن تكون مهزوماً من داخلك.. ما أسوأ أن تشعر بأنك ضعيف أمام أضعف الناس.. ما أسوأ أن تشعر بأنك لا شيء.. وأنك صفر.

إن هذه المشاعر السلبية تُوَلِّد لدى الإنسان كراهية لكل البشر.. تُوَلِّـــد عنفاً بلا حدود.. وفي لحظة معينة ينقَضُّ على إنسان ضعيف ويصفعه بقسوة بالغة. ليفتت عظامه.. يكوي جلده.. ينتهك عرضه.. يسحقه نفسياً وروحياً بالإضافة إلى التعذيب الجسدي.

ويحكي لنا التاريخ قصصاً عن رحمة البشر وقسوتهم أيضاً.. فيحكـــي أن رجلاً دخل الجنة لأنه اهتم بإرواء ظمأ كلب لا يعرفه.. ويحكـــى أن امـــرأة دخلت النار لأنها عذبت هرة أي "قطة أو بسة"،

ويحكـى أيضـاً من التاريخ القديم أن سيدة مكتنزة بالشحوم، جميلة بابـتذال، غنيةً من مال حرام، مشهورة دون أساس قد قامت بتعذيب خادمـتها.. وأن هـذه الخادمة كانت في عمر الأطفال نحيلة معدومة الجمـال شـديدة الفقـر جاهلـة نكـرة لا يعرفها إلا من كانت من أصلابهم..وأن هذا التعذيب قد فاق الحدود..

وهـذا التعذيب نال من مناطق حساسة في جسد الفتاة البائسة تعـرف بالمـناطق التناسـلية.. ولقد حار علماء التاريخ القديم لماذا بـالذات هـذه المنطقة؟! ولقد حاول بعض علماء النفس القدامى أن يجدوا تفسيراً لهذا السلوك الغريب من هذه السيدة المكتنزة كالبرميل فاستعصى عليهم الأمر.

ولكنني حاولت واجتهدت ورأيت أن هذه السيدة المكتنزة تشعر بالعجـز الشـديد والانهزام أمام هذه الطفلة النحيلة.. واختيار منطقة الأعضـاء التناسلية بالذات أمر يتعلق بالشرف.. وأتصور أن الحوار التالـي دار من طرف واحد أثناء قيام السيدة المكتنزة بتعذيب الطفلة النحـيلة.. وهو من طرف واحد لأن السيدة المكتنزة كانت هي التي تتكلم أما الطفلة النحيلة فقد أخرس الألمُ صوتها.. حتى التأوه لم تكن تقدر عليه.

السـيدة المكتـنزة تقول للفتاة النحيلة أثناء عملية التعذيب في مـنطقة الأعضـاء التناسلية: من تظنين نفسك يا حقيرةُ يا حشرةُ.. انظـري إلـى وجهك الدميم.. انظري إلى الطين الذي يعلَق بجسدك

المقزز هل تظنين نفسك سريفة.. إنك لن تكوني شريفة بعد اليوم.. بــل سأمنع أي أحد من أن يقترب منك لأنه سيتقزز بالنظر إلى هده المــنطقة المحـــروقة المشوهة.. وهنا لن ينفعك شرفُك بل ستكونين امرأةمنبوذة.. سيأنف منك كل الرجال.. أما أنا فكل الرجال يشتهونني يقــبلون علي.. أنا محبوبة.. أنا مرغوبة.. أنا جميلة.. أنا ثرية.. ولا يهمني أن أمتلك الشيء الدي تمتلكينه.. ذلك الشيء الذي تحاولين أن تتميري به علي إنك أيتها الفتاة الحقيرة تحاولين أن تهزميني. أن تلغيني. أن تحوليني إلى صفر. إلى لا شيء.. ولذا سوف أحطمك.. سألغيك كامرأة. سأنهي وجودك كأنثى.. ولكن يكفيني أن أكون أنثى مرغوبة.

أمـــا الطفلة النحيلة فلم تكن تفهم أي شيء مما تهذي به السيدة المكتنزة حيث كانت تصرخ.. وحاولت الطفلة النحيلة أن تنطق بكلمة اعتذار ولكنها لم تستطع.

وإزاءصمت الطفلة النحيلة وعدم قدرتها على إظهار الألم تمادت السيدة المكتنزة في عنفها وقسوتها وامتدت يدها إلى أجزاء أخرى من جســد الطفلة النحيلة ثم قالت كلمتها الأخيرة: سأضيعك كما ضيعتني أيــتها الحقيرة. وتحكي كتب التاريخ أن هذه السيدة المكتنزة بالشحم الأســود قــد ضـــاعت فعلاً لأن عدالة السماء هبطت على الأرض، وتمكنت من غزو قلوب شرفاء أحقوا الحق.

ليالي الأنس

النشـــوة القصــــوى لا تكون إلا بالطرب شريطة أن يكون لك شريك حينها تترجى الزمن ألا ينقضي فالنفس متعبة ولا يزول عنها همهـــا إلا بالأنس.. وليالي الأنس تحفر في الذاكرة وتظل تستدعيها منادياً يا ليالي الأنس عودي لنا.. وتتمايل الروح مثلما تتمايل الرأس فـــي ظل إحساس بالتكامل والاكتمال والتوازن وزوال القلق وسرور بالغ يغمرك بسخاء.

وفـــي تلك الأوقات يحن القلب وترق المشاعر وينفرج الوجه وتسترخي العضلات وتصفو النفس وتهتف بحماسة يحيا الحب.. يحيا الجمال.. إنها شلة الأنس وثلاثية الهنا: حب وفن وجمال.

ما أحوجنا للحظات سرور وسويعات هناء لنحلق ونبتعد بعض الوقـــت.. فأنـــت في حالة الطرب تطير.. يحملك اللحن على جناحي المـــتعة إلـــى آفـــاق وآفـــاق وتتفتح شهيتُك للحب فلا تتذكر إلا من أحببـــت.. سياحةٌ غرامية تجتمع فيها كل ذكريات الحب المختزنة في جَعبتك محاطةً بالفل والياسمين وكل الورود التي تحمل رسائل الحب.. وترتسم في مخيلتك صور تتعاقب وتتلاحق فهذا نهر وهذا قمر وهذا فجر وهذه زهرة وهذا عصفور وهذه أنثى بديعة لم يخلق مثلها وهذا

رجل لم يُخلق من هو في رجاحة عقله وفطنة وجدانه.. وهذان حبيبان يتناجـيان ويتـبادلان الأنفـاس، وحبيبان آخران تتشابك أصابعهما، وحبيبان آخران تجرأ هو باغياً شفتيها فتمتنع.

من يا ترى ذلك الرجل ومن يا ترى تلك المرأة؟

أهو هو وهذه من أحبها، أم هو أيُّ حبيب وهي أي حبيبة.. ليس مهمـاً من هو ومن هي فهما يجسدان معنى الحب.. والحب نوع من الطرب.. وإذا قلنا إن الطرب نشوة فإن الحب يكون قمةَ النشوة.

وتتبارى أسئلة حائرة للوثوب إلى بؤرة الشعور لتحظى بإجابة لـتحد مـن الاستثارة البالغة.. يهتف من يسألك عن أيهما أسبق في الوجـود الحب أم الفن أم الجمال؟ هل الحب أسبق ففتح الباب لسير المعنى في إطار غاية في الإبداع والتنسيق، أو هو الجمال الذي حث على الحب متجسداً في امرأة جميلة ورجل عملاق، أم هو الفن الذي أوصل النفس إلى حالة من النشوة فرقصت طرباً ونادت على شريك للرقص ورددت كلمات ذاتَ وزن ولحناً له سحر.

وثلاثية الكلمة واللحن والأداء هي نفس ثلاثية الحب والجمال والفن.. فالكلمة حب واللحن جمال والأداء فن.. وكلها مواهبُ ربانية.. مـنحٌ إلهـية.. كلها آيات العبقرية.. "سبحان العاطي الوهاب".. وهو رحمـة من الله لعباده.. أن يحبوا وأن يطربوا وأن يرتشفوا الجمال.. وكـيف تكون حياة تُحتَمل، حياة بدون هذا الثالوث.. انظر إلى وجه جمـيل لترى كيف ستكون مأخوذاً مشبوباً.. في هذه اللحظة سيخفق

قلـــبك بالحب وستطرب روحك بلحن عبقري يؤدّي بصوت من نور ويردد كلمات ذات معنى.

تذكـــر وقت أن كنت تحب.. تذكر كيف كان كل شيء حولك جميلاً..

تذكر تلك الألحان التي تهز الكيان.. ولا تملك إلا أن تقول كم كان الزمان بديعاً.

تذكـــر حـــالك وأنت تسمع ذلك العملاق، وهو يغني، أو تلك الحورية وهي تنطق بكلماتٍ طروب.. وقتها غمرك إحساس بالتلهف للحـــب وتصـــورت كل شيء جميلاً من حولك وكأن المكان افترِش باللحن وكأن الزمان اكتسى بالكلمات وكأن السماء اندهشت للصوت.. ولعلك بعدها أخذت تردد بشغف يا ليلة الأنس عودي لنا.

أقول لولا ذلك لما احتملنا الحياة.. وأبشع ما في الحياة الموتُ وخبـــثُ إنســـان. فالموت هو الحرمان الأبدي من الأحباء.. إنه وجع للقلب وكسر للنفس وإذلال للعقل.. أما خبث الإنسان فإنه يفرش بقعاً سوداء على وجه الحياة.

تذكـــر الخبائث في حياتك وسوف تشعر بالاكتئاب. والخبائث أساسها الغيرة.. والغيرة تخلق شعوراً بعدم الرضا أو العكس.. أي أن عـــدم الرضـــا يخلق مشاعر الغيرة.. ومنهما معاً ينشأ الحسد وتمني زوال النعمة، ونَفْثُ السموم من كذب ووشاية وتلفيق وطعن في الظهر ونصب الشباك والاحتيال.

غريب أمر هذه الدنيا أن يكون لها وجهان أحدهما جميل والآخر قبـــيح.. بل غريب أمر الإنسان في تناقضه وازدواجيته.. كيف يقدر على الكذب وعلى الغناء؟ كيف يقدر على الحب وعلى الخداع؟ كيف يقدر على الإحساس بالجمال ومزاولة الرذيلة.

وهــل الناس قادرون على ثُنائية ممارسة الخير والشر، أم أن هناك خيراً خالصاً، وهناك من يقوى على الاثنين معاً في وقت واحد أو في تعاقب.

حيــن تظن أن هناك خيراً خالصاً فأنت واهم إن وجودك هو الدليل على ذلك.

وحيــن تظن أن هناك شراً خالصاً فلا يمكن أن تستثني نفسك مــن الأشرار.. وحين تعتقد في وجود الخير والشر معاً فأنت واقعي مســتهدَفٌ للاكتــئاب ومســتهدَف للبغي والطغيان.. تكتئب حين يتم طعنك من الظهر.. وتزهو وتزدهي وتفتخر بقوتك حين تظلم وتطغى وتطمع ولا تشبع.

ومشكلة الإنسان مع الإنسان تبدأ منذ الطفولة.. فهناك المراهق الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره يتعرض للعقاب وهو لا يفهم لمــاذا عوقــب.. ويكتشــف أن زميلاً له وَشَى به.. كيف ولماذا؟ لا إجابة.. ومنذ ذلك الحين زُرِعت بذرتا الشك والاكتئاب معاً.

وذلك المراهق الذي نهض إلى سن الخامسةَ عشرةَ من عمره ويواجَــهُ بعــدوان غير مبرَّر من زميل كان يؤنسه ويتمناه صديقاً.. ومنذ ذلك الحين زُرِعت بذرة عدم الأمان.

وذلـــك الشباب الممتلئ حماسة والمنتفخ بالطموح فإذا بزميل صار صديقاً يردد الباطل عنه ليعوق مسيرته.

وتلـــك الفتاة رائعة الحسن وهذا ذنبها وإذا بأعز صديقة تلطخ ســـمعتها لـــدى مـــن اخـــتارها شريكة لحياته.. ولسوء الحظ كانت المعلومـــات صحيحة.. وذلك الرجل الناجح الذي تُحاك عنه قصص وهمية كلها افتراء مصدرها زملاءُ عمل تخلفوا من ورائه لمحدوديَّة قدراتهم.

وذلـــك الـــرجل الذي بهرته امرأة بحسنها الخارجي والداخلي ففـــرح بهـــا وأخذ يوطن نفسه على أن تستقر بداخله ويستقر بداخلها وصـــدقها فـــإذا بـــرائحة الكذب تفوح من بين كلماتها غيرِ محكمة التلفيق.

المشكلة دائماً شخص آخر.. والذي يجعل الحياة لها مذاق مر.. ولا يجـــدي السكَّر الخالص في إزالة هذه المرارة.. ولكنْ للحياة وجه آخر لابد أن نتمعن فيه.. حيث الصديق الذي يتفانى في حب صديقه والإخـــلاص له، وينشر عنه شذى الخير، وحيث الصديقة المخلصة لصـــديقتها أمانةً وصدقاً ونُصحاً سديداً ورعايةً أمومية خالصة رغم تقـــارب الســـن.. وذلك الرجل الشاب الذي يجود بماله في كل اتجاه مساعداً المحتاج والأهم غير المحتاج..

وذلـــك العاكف في معبده وذلك المنكَبُّ على علمه وذلك المضحي بحياته من أجل وطنه وتلك الطاهرة العفيفة التي مات عنها زوجها وهي

في ريعان الشباب فانصرفت عن الدنيا لتربية أطفالها.. وذلك الرجل الـــذي تمسك بزوجته المريضةِ المخلصةِ وفيّاً وخادماً.. وتلك المرأة التي لم تتنازل عن زوجها العاقر.

ولكن يظل هناك الاختلاط والمزج والازدواجية.. يظل الوجهان معاً.. وذلك هو عجب الإنسان من نفسه.. ووجه الخير من الحياة هو وجـــه الحب والجمال والطرب.. والذي يجعل بعض الليالي مؤنسة.. فيا ليالي الأنس عودي لنا.

لا أنا بدون الآخَر

فـــي الخريف تتساقط أُولَى قطراتِ الحزن، وفي الربيع تتفتح أُولَـــى زهـــراتِ السعادة.. في الصباحِ تهزمنا الهموم، فنكتئب، وفي المســـاء تعلو رايات الفرح فنبتهج.. يالَعَجَبِ علاقة الإنسان بالطبيعة والأزمـــنة والفصول.. الكون نسيج واحد مكاناً وزماناً ومخلوقات.. لكن العجبَ الأكبر هو كيف أن نور الصباح يجلب الألم حتى الدموع وظلمة المساء تستدرج السرورَ حتى الطرب !!

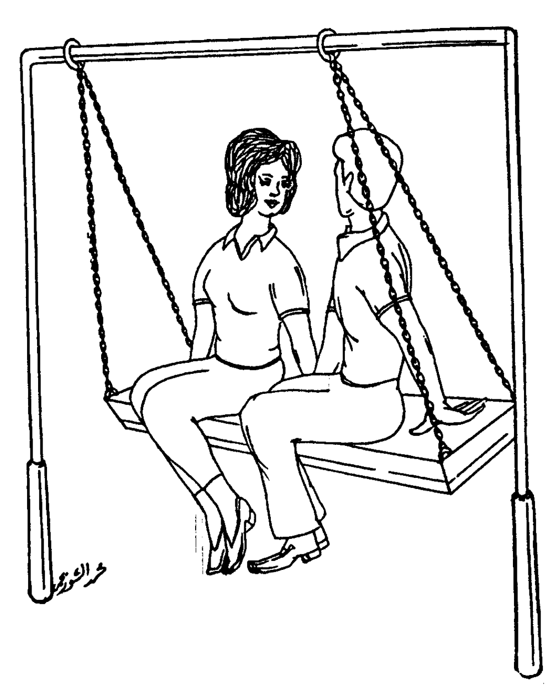
أما حينما ينزاح جزء من الليل فنصل إلى منتصفه أو بعد ذلك بقليل فإن اللسان يغني والفؤاد يرقص والروحَ تزغرد والنفس تنشرح والعقل يصفو.. وفي هذه اللحظات يكون بعض البشر مهَّيئِين لاستقبال رســـالات الإبـــداع تهبط عليهم من السماء كالوحي الإلهي فيكتبون ويغـــنون ويرسمون ما لم يخطر على بال بشر صورًا جمالية غذاء للـــروح التـــي فُطِرت على حب الجمال.. ويصبح الليل مرادفاً للفن ومرادفاً للجمال ومرادفاً للحب.. ولا يصح حب إلا في الليل.. وينام الإنسان هانئاً راضياً.. ثم يُؤْذِنُ بقدوم الصباح.. وتخترق أشعة النور الجفـــون فـــيدرك الإنســـان أن الاكتئاب بالباب فيتشبث بإحكام غلق

العـــيون ليحجب الضوء، ويشيحُ بوجهه في اتجاه آخر أو يدُس رأسه تحت وسادة أو يخفيها بغطاء وذلك في محاولة للهروب وكأن ضوء الصباح وحش يطارده.. وكأن أشعة الضوء مغزولة بأحزان، فتجمع كضفيرة من الهم تكبّلهُ فلا يستطيع حراكاً.

ولكـــن ضروريات الحياة تقهر الإنسانَ، وتضطره إلى إزاحة الغطاء فينهض للسعي.. في البداية ثقيلاً متثاقلاً.. وتدريجيًا تعود إليهِ حيويـــتُه.. يتحســـن في وسط النهار.. وينشط في آخره.. وتلوح من بعـــيد بشائر الرضا يحملها السرور على جناحي الوعد بقدوم الليل.. وكلمـــا خبا الضوءُ كلما اتسعت مساحة الرضا والاستقرار النفسي.. وحيـــن يـــتأكد الإنسان أن النهار قد استسلم تماماً وأن الليلَ قد أحكم قبضتَه وأن الظلام قد عم بسخاء فإنه يسترضي تماماً ويشعر بالخَدَرِ الـــذي يـــزحف علـــى جسده ويصبح للنغماتِ طعم وللكلمات معنى وللألـــوان تأثـــير وجدانـــي سارٌ.. وهنا يتحقق للعقل صفاؤه الكامل ويصـــبح قـــابلاً للـــتذوق أو الإبداع.. وفي المقابل فإن بعض القوم يكتئبون بالليل ويأنسون بالنهار.. ومازال بعضهم الآخر يحزنون في الصيف ويبتهجون في الشتاء.

إن الناس منقسمون في توقيتات أفراحهم وأتْراحِهم ولذا يتنوع العشـــق ويخـــتلف، وكلٌ يغني على ليلاه.. وتدور الحياة.. أي تدور الأرض بمـــن عليها فلا يظل إنسان في موقعه وفي أي لحظة يكون فـــي مواجهـــة وقـــت بعينه ليلاً أو نهاراً، وفي مواجهة فصل معين

صـــيفاً أو شـــتاءً مروراً بالربيع أو الخريف.. يا سبحان الله.. دوام الحال من المحال.. فلابد من التعاقب في الزمان وفي المشاعر.. فلا نهار يدرك شمساً وإنما يدور في فلكها ولا يستبين من وجهه للأرض إلا بقدر ما يسقط عليه من ضوء الشمس.



إنـــه تعاقبُ أجزاء الدائرة حين تدور نقطة في أعقاب نقطة لا تدركهـــا وإنما تَتْبَعُها.. تدُرجٌ ما بين ليل ونهار وحزن وفرح ونشاط

وخمــول ونوم ويقظة.. إن كل وجه يقابلهُ وجه آخر مختلف ومغايرٌ تماماً..

ولكــن هناك درجات ما بين كل وجه ونقيض.. وبذلك يكون لكــل شيء طعم ومذاق.. لون ورائحة.. نغمة وملمس.. كل شيء له نقيضـــه وتلــك هي المعرفة الحقة لكل شئ.. المعرفةُ اليقينية.. فلا شـــيء يعــرف إلا مــن خلال نقيضه.. يستيقظ الإنسان في الصباح مكتئــباً إلى انطفاء ووخز فإذا جاء الليل وانقلبت المشاعر إلى شيء مخــتلف .. النقــيض.. وبــذا يتعرف الإنسان على المعنى الحقيقي للسرور.

ويجيء الشتاء فيعرف الإنسان الانقباض والانكماش فإذا جاء الصــيف ضُــخَّتْ دمــاءٌ مغايــرةٌ في القلب تجعله يرقص ويطرب فيــتعرف الإنســان علــى مشــاعر مختلفةٍ ومناقضة لما عايشه في الشــتاء.. يعــرف الإنســان المعــنى الحقيقي للفرح ويصبح قادراً علـــى التفرقة ما بين شعور وشعور مثل قدرته على التفرقة ما بين ليل ونهار.

هكــذا الحياة، فاقبلها أو ارفضها.. ولكننا نقبلها رغم التذبذب والــتأرجح.. رغــم الأحزان نقبلها لأن هناك سروراً في انتظارنا.. رغــم الظلام نقبلها لأن هناك نوراً يلوح من بعيد.. اي هناك أملاً.. ذلــك الأمل الذي يجعلنا نصبر ونستبشر الخير ونقول دائماً إن الغد ســيكون أفضل.. ويواسي بعضُنا البعضَ فنقول لعله آخر الأحزان.. ولكــن الحــزن يعاود المجيء من جديد مثل معاودة مجيء الظلام..

ولكــن خبراتنا السابقةَ تؤكد لنا أنه لا حزن يدوم ولا ظلام يبقى إلى مالا نهاية..

فالدائــرة لا تــتوقف، وأي شـــيء لابد أن يقابله شيء مواجه ومخــتلف تماماً.. أي شيء يقابله ويواجهه نقيضه.. وبذلك لا ييئس الإنســان.. ولكــنه لا يصــل إلى هذه الحقيقة إلا بعد وقت طويل.. ولــذا فالحكمــاء دائماً من كبار السن.. لا يفهم الإنسان الحياة تماماً إلا وهــو على شك مغادرتها.. فما أن يبدأ في الفهم حتى تُهْدَمَ خلايا مخــه وتصــبحَ غــير قادرة على الفهم فيموت الإنسان مثلما ولد لا يعــرف شــيئاً، يولــد جاهلاً، ويموت جاهلاً، وكل إنسان في رحلة حــياته مكــتوب علــيه قــدر مــن الحزن وقدرٌ من الفرح.. ربما بالتســاوي.. تداهمــه المصائب فيكتئب.. وتدور الدوائر.. وينسى.. ويجيــئه فــرح فينتشــي.. ويعقب فرحَه فتورٌ.. يذهب عنه الزهو، ويــتهاوى الفخار، وهذه الحكمة بليغة إذ يجب أن يشعر بضعفه ولا مــانع أن يشــعر أيضــا بالذل.. أي أنه لا شيء وهذه هي مشاعر المكتئب.. مشاعر من الدونيَّة والانحطاط والتبعثر والتمزق.. ولو أن الإنسان تُرِك له أن يشعر إلى ما لا نهاية بالقوة والتِّيه والفَخَار لطغى وبغــى وسيطر وتجبر.. ولكن الإنسان في هذه الحياة كالجالس على الأرجوحــة مــرة إلــى الأمام ومرة إلى الخلف.. مرة إلى أعلى.. ومرة إلى أسفل.. لا يبقى في علو دائم وإلا قذف به غروره وتتحطم رقبــته.. ولا يــبقى فــي دون دائــم وإلا سحقه اليأس ودفنه تحت الأرض.

ولكن كل أرجوحة بها مقعدان.. مقعد لك ومقعد لشخص آخر تختاره ويختارك ويشاركك الأرجوحة في علوها ودنوها، في صعودها وهبوطها.. وعليك أن تختار إما أن يبقى هذا المقعد الآخر شاغراً وإما أن تختار له شريكاً ورفيقاً.. شريكاً يشاركك فتتقاسم معه كل شيء.. فإذا شاركك الحزن حمل عنك نصفه.. وإذا شاركك الفرح ضاعفه لك فالأحزان تتضاءل بالمشاركة والأفراح تتضاعف بالمشاركة.. وقد يكون مفهوماً لماذا تتضاءل الأحزان بالمشاركة حيث يعاونك في حملها فيقل عبئها.. ولكن لماذا تتضاعف الأفراح بالمشاركة؟ تتضاعف الأفراح بالمشاركة لأنك ستراها مرتين.. مرة بعينيك ومرة أخرى بعيني شريكك..

والجمال يتضاعف أيضاً بالمشاركة.. وتميل الرؤوس وتتمايل أكثر بفعل الطرب إذا كان هناك شريك يسمع معك، إن متع الحواس تحتاج مشاركة.. وهل تتحرك أحاسيس يد إلا إذا مستها يد أخرى.. وهل ترتجف شفتان إلا إذا لاصقتهما شفتان أخريان.. وهل تلمع عين إلا حينما تعكس نوراً ينبعث من عين أخرى.. وهل يهتز جسد بالنشوة إلا إذا احتك بجسد آخر.

ومضاعفة الأفراح يقابلها ويساويها خفض الأحزان إلى النصف.. في كلتا الحالتين يكون هناك إحساس بالرضا.. أي الحمد لله أنني لست وحيداً.. ولعل وجهي الحياة من الحزن والفرح جُعلا خصيصاً لكي يَجِدَّ الإنسان في البحث عن شريك يَجلس بالمقعد الشاغر بالأرجوحة وبذا نهتف أهلاً بالأفراح.. بل لعل الأفراح جُعلت في البداية ليتعرف

الإنسان على الأحزان ليتعرف بذلك على الطمأنينة حين يقاسمه شخص آخرُ حملَ أحزانه أي الطمأنينةُ لا تأتي إلا من إنسان آخر.. الشريك.. الرفيقِ.. بل "الأنا" لا يكون لها وجود إلا من خلال هذا الآخر.. وإذا كانت "الأنا" ذكراً فلابد أن يكون الشريك أنثى حيث تكمن تلك القوى الطاغـية القهـرية التي تجذبني وتشدني وتلصقني بالآخر ولذا جُعِلَ مقعَدَا الأرجوحة كمقعد واحد مقسوم من منتصفه بخط وهمي يكاد لا يرى إشارة إلى أن المقعد واحد يتسع لشخصين.

لا فـرح بدون حزن.. ولا ليل بغير نهار.. ولا صيف بدون شتاء.. ولا أنا بدون الآخر.. فأهلا بالحياة كما هي..

طمعُ العاشقِ

هكــذا استشعرت ليلة أن كنت وحدي.. استشعرت أني لم أكن وحدي.. هذا أمر عجيب إذ كان المكان حقاً خالياً إلا مني.. كان الليل قــد هــوى زاخرًا بعَتَمَتِه منزوعَ القمر إلا من نجوم معدودة.. وكان القلب مكدودًا..

وكــان القلب مكدوداً بالشوق.. وحين غلبني الوجد وأشجاني الحنيــن شعرت بها تسير إلى جواري.. مددت يدي لأحتوَيها فلم أجد أحدا رغم أن الشعور كان يقينًا.

سيطر عليَّ القلق.. وليس الخوف.. للحظات ولكني سرعان ما اســتعْدتُ ثباتي.. وفلسفت الأمر بأن وجودها الطاغيَ داخلي جعلني أتصــور أنهــا جانبــي بلحمها.. أي ليس مجرد وجود معنوي ولكنه وجــود مادي لا ينقصه إلا أن ألمسها بيدي.. وكنت واثقاً من ذلك.. وبخُبْــث ناديت عليها بصوت خافت لا يسمعه إلا من كان بجواري فعــلاً.. ولــم يــرد عليّ أحد فعاودت النداء مع استدارة لا تَبينُ من رأســي لعلــي ألمــح طرفاً منها.. فلم أر شيئاً مثلما لم يستجب أحد لندائــي.. وفي لحظات زاوجْتُ بين شعوري اليقيني بوجودها وبين

عـدم وجودها المادي فأدركت إما أنني جننت أو أنني أعايش خبرة جديدة لأول مرة.

وحاولـت باستماتة أن اختبر هذا الشعور بأكثر من طريقة تنم عـن دهـاء فإذا بها ما زالت معي.. أي موجودة بالمكان سواء إلى جـواري مباشرة أم في حدود الرؤية إذا تطلعت حولي.. سألت أحد الحاضرين هل رأيت فلانة.. فأدار رأسه في كل اتجاه وأجاب: أتصور أنهـا لـم تحضر الليلة.. إذن مشاعري تَنم عن خبرة ذاتية جداً.. أنا وحدي الذي أشعر بأنها موجودة.. وسَرعان ما أضيف إلى مشاعري شـيء جديد وهو أنها ليست موجودة فحسب وإنما تشعر بي أيضاً.. أنا وهي معاً.. أنا أدركها وهي تدركني.. وما الإدراك إلا الإحساس مشفوعاً بالمعنى.. أي إحساس تتلقفه حواسك ويتم تحليله بالمخ استنادًا إلى خبرات سابقة.. إذن وفي هذه اللحظة فإن إحدى وسائل الإحساس عـندي كالعين أو الأذن أو الأنف أو الجلد قد استقبلتها ثم قام عقلي بإدراكهـا.. وهـذا لا يحدث إلا إذا كانت المدركات لها وجودٌ مادي حقيقي في نطاق أعضاء الإحساس.

وسـرعان ما تعديت مراحلَ القلق والعَجب إلى مرحلة النشوة والتي لا تتحقق إلا بالسعادة الطاغية والرضا الكامل والأمان المطلق والسـلام الشـامل.. زالـت عني كل أحاسيس الاغتراب التي كنت أكابدهـا قـبل مجيئها.. وكأنما شَعَرتْ باحتياجي المُلحّ لها فجاءت.. وفـي الحقيقة أنها في ذلك اليوم لم تبرح عقلي منذ إشراقة الشمس.. وظللت أحملها في داخلي طوال اليوم أينما حللت.. لم أكن قد رأيتها

منذ أيام فهفت نفسي إليها بشدة.. وفي هذه الأحوال أظل أستعيدها في رأسي صوتاً وصورة ورائحة وملمساً وطعماً.. مجرد خيال معذب لا يرقى إلى الوجود المادي.. ولكنْ الليلةَ الأمرُ مختلفٌ.. لقد قفزت من رأسي لتصبح إلى جواري.. تحول الخيال إلى حقيقة.. تجسد التمني فـــي الواقـــع.. يا إلهي كم أشكرك لعلمك بحالي واستجابتك لأشواقي ولإطفـــائك لـــنار الوجْد المنبعثة من كياني فبعثت الروح إلى الأفكار فاستحالت بقدرتك إلى كيان مادي متكامل موجود حقاً في المكان.

وطلـــع علينا نهار جديد وشعرت بالتعب فغفوت ولم يغادرني هـــذا الشعور الرائع حتى في نومي.. إذ حين كنت أتململ أتصورها بجانبـــي في الفراش وليس أكثر.. فالبراءة والنقاء كانتا غطاءنا تحت مظلة من الرومانسية التي تخفف من وطأة إلحاحِ الجسدِ.. ويبدو أن هـــذا النوع من التواجد والذي هو في الحقيقة منحةٌ إلهية لا يصاحبه الزئيرُ البشري إذ تطغى مشاعر الامتنان والشكر والحمد لله أن وهبني ذلك الشعور الرائع بوجود من أحب حتى لا يهلكني الشوق.

وحاولـــت بعد ذلك أن أكرر هذه التجربة إراديًا، فلم أستطع.. يبدو أنها تحظى بالتلقائية البحتة كالوحي الذي يهبط من السماء وقتما يشـــاء.. أي فـــي لحظـــات معينة استجابة إلى أمر إلهيٌ مكافأةٌ لعبد صـــبور والله يحـــب الصابرين.. والله يحب أيضاً الذين تعمرّ قلوبهم بالحـــب.. فالذي يحب إنساناً هو في الحقيقة يحب الدنيا كلها.. ومن حـــبِّ الدنـــيا ينتقل إلى حب الآخرة.. ثم يعلو ويعلو ليصل إلى حب الله.. ومـــن يحـــب يريد أن يتواصل، فيجتهد الإنسان ليصل إلى الله

ويشعرُ بغربة.. فيحِنُ اللهُ على العبد العاشق ويشفق بحاله فيبين لمحات منه فيهتف الإنسان سبحان الله يا نور الله يا جمال الله.. يتبدل الله في الرحمة والعطاء وتسكين الألم والهداية والتوفيق.. وتدمن حب الله فتتلذذ بصلاة ومناجاة وتسبيح.

ومن حب الله تحب رسوله الذي قاد خطواتك في الطريق إلى الله.. الذي دلّك على الطريق.. الذي أعطاك المفاتيح.. ومن حبهما معاً الله ورسوله تحب أمك وأباك.. يتداخلان في صميمك.. ولا تدرك عمق حبك لهما إلا حين تفقدهما.. حينئذ تعلم أنك لم تكن تحبهما احتياجاً ولم تكن تحب حبهما لك ولكن تحبهما لأنهما يجسدان حُبَّ الله على الأرض.

وأنت لا تدرك كم تحب أبناءك إلا حينما يذهب عنك أمك وأبوك.. في هذه الحالة ينتابك أعجب شعور أي تشعر بأن ابنتك هي أمك وأن ابنك هو أبوك.. في البداية أنت تحتويهما وقرب النهاية هما يحتويانك.

ولا يخفف من وطأة النهاية إلا تلهُّفك على لقاء الله وأنت في صورة أخرى تتيح لك الاقتراب.. إنه الشوق الأكبر لمصدر الرحمة والجمال.. ورغم أنك كنت من الآثمين إلا أنك تظل تطمع في القرب، وذلك من باب الطمع في الرحمة، ومن فرط ثقتك بالغفران إذ تشعر أنه يكفي أن يكون قلبك عامراً بالحب.. ومن يعمرْ قلبه بالحب فهو مؤهل للقاء وما من شيء يمحو الآثام ويطهر الأبدان إلا الحب..

وهـــذا حـــق.. إذ أن الأصل في الحياة هو الحب.. حبُ رجل لامرأة وحبُ امرأةٍ لرجل.

وهكذا وجدتُني أحبُكِ أيتها المرأة الرائعة.. وهكذا وجدت نفسي رائعـــاً إذ حظيتُ بحبكِ.. وإذ حياتي تكتسب أجلَّ المعاني بوجودكِ.. ولذا أشتاق بألم إليكِ.. وإذا الله يُنْعِم عليَّ بشعور جديد وهو أني أراكِ بجواري.. نعمةٌ من الله ومنحة منه ورحمة بي.

ودعوت الله ألا يحرمَني من هذا الشعور حتى ولو بشكل متقطع.. إذ فـــي هذه الأحوال لا تكونين فقط بجواري وإنما تشاركينَي في كل شـــيء.. وأنـــا أحـــب مشـــاركتك لي لأنني أجد معنى فيما تفكرين وتقترحيـــن وفـــيما تشعرين.. وأجد متعة عقلية ومتعة نفسية في تلك المشاركة.. أستند لرأيك.. وارتكز على توقعاتك وأثق بَحدسكِ.. وما أصدقَ حَدْسَك وكأنك تنطقين عن وحي.

والغريـــب أنـــك حين كنت معي بهذه الطريقة الجديدة في تلك الـــتجربة الفـــريدة لـــم تنطقي.. ورغم ذلك كنا نتجاوَرُ.. وهذا أمر غريب.. إذ كيف وصلتْني أفكارُك ومشاعرُك دون كلمات.. ولكن لِمَ العجبُ!! ألم توجدي بطريقة غريبة!! فلماذا تَعْجَبُ بتجاورنا الصامت.. يـــبدو أنـــك أودعت لدي كنزًا هائلاً استخرج منه ما أريد من أفكار ومشاعر في كل شيء وعن كل شيء وذلك حين توجدين معي.. ويبدو أن هـــذا الوجـــود يُمنُ الله به حين أكونُ في أشد الاحتياج إليك لأفتحَ الكنزَ.. في هذه الحالة تتجسدين.. وهو تجسدٌ كامل بكل معنى الكلمة..

تجسُّـدٌ غيرُ منقوص.. تجسُّدٌ قادر على الاتصال بي والتواصل معي بكل وسائل الاتصال الممكنة بين اثنين من البشر موجودين في مكان واحد.

ولا شـك أننـي لست الوحيد المحظوظ بهذه الخبرة الفريدة.. وهـي الخبرةُ التي لا يمكن تفسيرها بعلم الفسيولوجيا الذي يبحث في وظائفِ الحواس وإدراك الموجودات.

وأتصـور أن هـذه هي الطريقةُ التي تتواصل بها المخلوقات التـي لـيس لهـا كـيان مادي.. فالمادة ليست هي الوسيلةَ الوحيدةَ للتواصل.. هناك تواصلٌ على مستويات أخرى.

إلا أن الإنسـان لا يطمئن إلا في الوجود المادي ولذا فإن الله فـي هذه التجربة الفريدة يجعل الإنسانَ علي يقين من وجود محبوبه بلحمه ودمه وروحه وعقله.

والشكر لله واجب.. والطمع لله واجب أيضاً.. ولكن فيم يطمع الإنسـان وقد من الله عليه بنعمة الشعور بوجود حبيبه بجواره حين يشتاق إليه.

هنا يُجيبُ الإنسان الطامع: أرجو من الله وهذا ليس كثيراً على الله أن يهبَنـي نعمـةَ الشعور بوجودي في مكان واحد مع أشخاص أحبُهم ولكنهم غادروا.. ومَنْ أحبُّ إليَّ من أمي.. وأبي..

معنى الخضوع

من السهل أن تصبح ملكاً، من الصعب أن تكون وزيراً.. وليس الملك كالوزير.. فالملك ملك.. الملك يملك.. الملك يُملي.. الملك يحكم ويتحكم.. الملك يجلس على العرش.. والكلُّ يخضع للملك.. والخضوع إيمـانٌ وتسليم ليس عن قهر وإنما إقرار واختيار، فلا إيمان مع قهر ولا تسليم مع إجبار.

الإقرارُ بأن الملِك هو الأعظم وذلك حين يُجْمِعون أنه الأعظم.. أي لـيس كمثله شيء في مجال ملكه.. ثم يأتي بعد ذلك الإيمانُ أي الاعتقادُ الراسخ بجدارته.. فلا يزحزحه أحد من العقل والضمير.

إذن المُلك شرطُه الخضوع.. والخضوع شرطُه المُلك.

والخضوع هو فعل إيجابي مبني على الاختيار التلقائي الحر.. ولا يـتم عن ضعف وإنما عن بصيرة نافذة.. بصيرة ترى المكنون مـن اللآلئ والجوهر أي الثراء الذي ليس من بعده ثراء.. وهو ليس ثراءَ المال، وليس ثراءَ القوة التي تخيف.

أن يخضع لك طامعٌ في مال أو خائفٌ من قوتك فهو خضوعٌ زائف.. بل هو ليس خضوعاً بالمعنى الجميل للخضوع.. والخضوع الـزائف هو خضوع الطامع والخائف وهو خضوع شكليٌّ بعيدٌ عن إقـرار العقل وإيمان الضمير.. إنه خضوع الضعفاء.. وهو خضوع ينقلب إلى الضد حين تغير الحال.

وأن تكون ملكاً فيكفي شخص واحد يؤمن بك.. شخصٌ واحد يـتاح له أن ينفذ داخلك ليرى اللآلئ والجواهر الحقيقية التي تكشف عن إنسان رائع جميل وحكيم.. جماله في حكمته.. حِكْمَتُه في رجاحة قلبه، والعقل الراجح يكون في عدالة الضمير وتسامُح النفس وطهارة الـيد.. وأن يؤمـنَ بك شخصٌ واحد خير من أن يخضع لك مليونُ طامع ومليون خائف..

الإيمـانُ بك معناه أنك ملك غيرُ قابل للعزل ولا أحدَ يملك أن ينقلب ضدك.. أي أنك ستكون ملِكاً أبدياً طوال حياتك.

والملوك الحقيقيون أكثر من الملوك الزائفين ولكننا لا نعرفهم لأنهم لا يرفُلُون في أُبَّهةِ الملوك؟

الملـك الحقيقي لا تعنيه مظاهرُ المُلك.. فهو يشعر في قرارة نفسه بأنه ملك الملوك.. وهو واثق بنفسه شديدُ الكبرياء.. ساحر في جلالـه.. مطمئن إلى عزته.. ومع ذلك فهو شديد الحياء.. وليس من ملـك مثل الذي يجلس على عرش قلب امرأة.. وليس من ملكة مثلِ التي تجلس على عرش قلبِ رجل.. منتهى الملك.. منتهى الاستقرار.. منتهى الثقةِ.. في موقع يُطِل على الجنة ينَهلُ من الجمال الذي يصبُغ كلَّ الموجودات.

والخضوع بمعناه الإيجابي أي المعنى الطيبِ معناه أن الطرَفَ الآخـر الذي يجلس على عرش قلبك هو محورُ حياتك.. والمحورية هـي الأهمـيةُ.. والشخص المحوري هو يضيف الأساسياتِ لحياتِك

وأهـم هذه الأساسيات هو الشعور بالطمأنينة وبَعْثُ الأمان.. يا لله.. من هو ذلك الإنسان القادر على منحِ الطمأنينة وبعثِ الأمان دون مال ودون سلاح.

لابـد أن قوتَـه تكمُن في أشياء أخرى.. قوة لا تُرْهَبُ وإنما تُحتَرمُ.. قوة لا تُقهَر وإنما تحمى.. قوة لا تُزَالُ وإنما تثبت وترسخ فإذا كان رجلاً فإن قوته تكمن في قدرته على الاحتواء العاطفي.. أي يكـون كالمظلـة الواقـية.. التي تحمي الرأس من مغالاة الطبيعة، وكالمعطف الوثير الذي يلامس الجسد بحنان الأم التي تصون وليدها من تقلبات الجو، وكالباب الرصينِ الذي يحمي مَنْ خلْفَه من غوْغاءِ الطـريق كـالأب الـذي يَذُود بحياته دفاعاً عن أطفاله.. وليس ذلك تشبيهاً للمرأة بالطفلة أو لتأكيد ضعفها واحتياجها للحماية وإنما لتثبيت أن الرجل الصالح كالدرع التي تحمي الفارس..

فالفـارس لا يكـون ضـعيفاً والـدرع لا يرتديها إلا القويُّ المخاطـر.. والحـياة محفوفة بالصعاب ولذا فلابد من درعِ الرجلِ الذي يحمي المرأة.. ودرع الرجل هي قلبه.. أي حنانُه وعطفه.. أي مودتُـه ورحمـته.. وتخضع المرأة لمليكها الرجل الذي يجلس على عرش قلبها. لرجاحة عقله التي ترقى به إلى مصاف الحكماء.. وذلك نـوع آخـر مـن الاحتواء الذي تحتاجه المرأة.. وحكمة الرجل في صبره.. في تسامحه وفي تقديره لظروف الآخر.. في إمساكه لغضبه وكـبحِه لاندفاعـه.. في تجاوُزِه ومرونته.. في قدرته على التفكير

الهادئ المنطقي.. في سهولة تراجعه إذا ثبت خطؤه.. في عدم تماديه وتعصُبه وتطرفه، في جديَّته وليس غلظته، في تحمُّله للمسئولية وليس تسـلطه، فـي احترامه لمن يستحق الاحترام وليس إنقاصاً من قدْرِ الآخريـن.. وفـي النهاية في تواضُعِه مع الاحتفاظ بالرأس المرفوع والقامـة المسـتقيمة تحيط به هالةٌ من الكبرياء المشفوعةِ بثقة النفس وليس الغرور وبذا يستحق الجلالة وتخضع له المرأة

وإذا كانت المرأة هي الملكة أي ظفرت بالجلوس على عرش قلب الرجل فإن الرجل يخضع لها.. فالخضوع للقوة وقوة المرأة في قدرتها على لا محدودية الحب.. الحب اللامشروط.. الحب المطلق.. وذلـك مـن وحي عاطفة الأمومة.. وعاطفة الأمومة ليست كعاطفة الأبوة.. عاطفة الأمومة هي مظلة باتساع السماء كلها.

ولذا فالمرأة لا تصبح أمًا فقط عن طريق امتلاء رحمها بطفل.. ولكن المرأة تصبح أمًا بامتلاء قلبها بحب رجل.. فحبيبها هو الطفل الأول.. والرجل في حاجة ماسة إلى هذا الحب من مليكته.. وخضوعُ الـرجل للمرأة هو خضوع إكبار لعواطفها السخية التي تدفع بالبهجة للحـياة وتبث الصفاء في النفس وتثير الأحاسيس في الفراش وتسهل الصـعب وتبسّـط المعقد وتتسامح في الأخطاء والزلات.. وتلك هي الأنوثة الحقة.. أو هذا هو المعنى الجليل للأنوثة وهي حكمة الله في خلقه لرجل وامرأة ليتحابًا فيخضعَ كلٌ منهما للآخر.. إيماناً واحتراماً وإعلاءً وإجلالاً وليس خوفاً وإذلالاً.

مــن يأنفْ من الخضوع فهو لا يستطيع أن يحب ولا يستحق الحب.. وخضوع الرجل للمرأة هو رسالةُ حبٌ لها تجعلها تطير من فرحة شعورها بالأمومة ولأهمية دورها في الحياة.. وذلك الخضوع من جانب الرجل هو تعبير عن الاحترام والتقدير.

الخضــوع بمعنى أنك مهمة لحياتي.. إن حياتي لا تكون ذات معنى إلا بك.. إنك مصدر الجمال والإلهام لحياتي.. إنني غارق في ســعادة قصوى بك ومعك.. خضوعي لك أيتها المرأةُ الحبيبة معناه أنك ملكتِني بأنوثتِك.. وأنوثتِك هي عاطفتك الرائعةُ غيرُ المحدودة.

وحيــن ملكتِنــي صرتِ مليكتي وحين ملكتُك صرت مليكَك.. أنت الملكة وأنا الملك.. ولذا أصبح الخضوع متبادلاً.. وهذه المعاني الجمــيلةُ تــرفع عن كلمةِ الخضوعِ المترادفاتِ السلبيةَ.. فهي ليست خضوعاً وليست إذعاناً لإرادة قهرية.. وهي رفعة وليست ذلاً.. وهذا الخضوع مثل حلاوة حبّالإنسان لله..

فأنت تصلي امتثالاً عن قناعة.. تصلي حباً عن إيمان.. تصلي تســبيحاً واعــترافاً بتنَزُّه وقدسية.. تصلي شكراً وامتناناً.. ليس في الأمــر قهر.. فأنت حر.. أنت حر تماماً.. أنت الذي اخترت طريق الهــدى.. أنــت الذي رأيت النور فاتبعته.. أنت الذي امتلأت نفسك بالطمأنينة بوحيٍ من عقلك الذي فكر وتدبر بعد تأمل.. وأنت تخضع لله فــإنك لا تشعر بالذل.. بل تشعر بالعزة.. تشعر أنك قوي.. تشعر بحالة حب يرقى إلى العشق لأن به شوقًا وتلهفًا واستغراقًا ورغبة في الانفصــال عــن الواقــع والسباحةِ في الفضاء الكوني دنواً واقترابأ

وترقباً للحظة اللقاء مع شعاع من نور من فيضٍ إلهيٍّ من عند الملك القـدوس السـلام الحق العزيز الغفار الجبار الرحمن الرحيم، تجلت أسماؤُه وصفاتُه.

مـن يـأنفُ إذن من الخضوع!! من يأبَى إذن الخضوعَ!! إن خضـوع الإنسان لربه تأكيدٌ لعظمة الإنسان واستحقاقهِ للتفضيل على كل المخلوقات.. وخضوعُ الإنسانِ لحبيبه تأكيدٌ لإنسانيةِ الإنسانِ.. إن الخضوع مرادفٌ للكرامة.

الأب والابن

"يأيهـــا الخليلُ الجليل.. يا أصلَ رسالات النور من الحق إلى الأرض.. قـــل لي: كيف كانت حالُك يوم الامتحان الرهيب؟ من كان دليلَك إلى الصواب؟ هل كان قلبَك الذي امتلأ بالعشق؟ هل كان عقلَك الرشيدَ الذي وعَي الحكمة وفهم القصد؟ أم أن الذي وضع الامتحان هـــو الـــذي هـــداك إلى الاختيار الصحيح ليضرب مثلاً ويؤكد مبدأ ويرسم طريقاً وهو أن الامتثال لأمر الحق هو طوق النجاة من أشد الصراعات حرَجًا وألمًا".

مـــا أصـــعبَه مـــن امتحان يفوق قدراتِ البشر، وما أقساه من صـــراع ذي حلقـــة من حديد مكوي تلتف حول العنق وما أعقده من اختيار بين عصيانِ الرب أو ذبحِ الابنِ.

قـــال الأب يـــا بُنَيَّ رأيت في المنام أني أذبحك.. وكأن الأب توقـــع مـــن الابن أن يجزع ويهلَع صارخاً مستصرخاً فيجتمعَ القوم حول الأب ليَحولوا بينه وبين رقبة الابن فيعودَ الأب إلى الرب آسفاً معتذرًا متعللاً بضعفه وقِلَّةِ حيلته.. يا ربي أنا أبٌ.. وهذا فَلْذة كبدي فكيف أذبحه!!

مــاذا تريد منا يا الله؟ وأيَّ قانون تريد أن تسُنَّ؟ هل تريد أن تُقرَّ ذبح الآباءِ للأبناء؟ يا ربي مهما آتيتني من حكمة فإني عاجز عن الفهــم؟ يا ربي إن قلبي لم يُخلق من حديد فكيف يطاوعني على ذبح ابنــي.. إنني يا ربي أقوى على ذبح قلبي ولا أقدرُ على ذبح ابني.. فليعش ابني وأمُتْ أنا.. هكذا خلقت البشر يا الله.. أن يذود الأب عن ابــنه بحــياته. لكــن الابن خَذَلَ الأب.. وذلك لأن الابن يعرف قَدْرَ الأب.. فهو ليس أباه وحده بل هو أبو الأنبياء والرسل.. إنه الأول.. إنــه المخــتار لوضــع الأساس وتثبيتِ القاعدة وحمل اللواء، فكيف يتحايل على عصيان الأمر!! إنه العبد الطائع الشكور المتبتل العاشق الزاهد.

ولكــن الابن كان يعرف بعض السِّمَاتِ الأخرى عن شخصية أبيه، كان يعرف أن أباه هو رمزُ الحيرة لا يقنع ببساطة ويظل يسأل ويســأل.. وهــي حــيرةٌ أراد الله أن تنــتقل منه إلى أحفاده فيسألوا ويتفحصوا حتى يثبتوا.. فبدايةُ إيمان أبيه كانت عقلَه حين سأل كيف نعبد إلهاً صنعناه بأيدينا.. وعقل أبيه هو الذي لم تعجبْه الشمسُ فيظل يبحــث عن خالق الشمس.. وعقلُ أبيه هو الذي أذهلته عملية الخلق فــأراد أن يعــرفَ الســرَّ الأعظم من ربه فتجرأ وسأله كيف يحيِى المــتوى!! فسأله ربُّه سؤالاً كان بمثابة امتحان عسير: أوَ لم تؤمن؟ بمعنى ألم تكفكَ قناعتُك العقلية التي أتتك من تأملك في خلق الله.. ولم يكن السؤالُ يحملُ عتاباً بل كان تأكيداً على حيرةِ العقل التي صاغه الله علــيها.. فقناعات العقل تحتاج إلى طمأنينة القلب والله هو هادي

القلـــوب يُقِـــرُ فـــيها السلامَ والسكينة وينشطها بالحب والهيام.. وهنا تتجلى عظمة الخالق حين أراد أن يطمئن قلب خليله فاستجاب لطلبه فدعاه أن يذبح الطير بيده ليراها مرة أخرى تعود إلى الحياة.. وكانت تلك سنةً أخرى من سُنَن الله وهي أن الإنسان عقل وقلب.. وكان ذلك إعـــلاءً لشـــأن القلـــب عند الإنسان.. ذلك القلب الذي يحب ويتألم.. وأيضاً يطمئن.. وإن طمأنينة القلب تزيل شكوك العقل الحائر.

كـــان الابن يعرف كل ذلك عن أبيه.. كان ابناً غير عادي إذ كـــان يُهَـــيَّأ لحمل رسالة أبيه من بعده.. ولذلك متعه الله منذ طفولته بشـــجاعة القلـــب.. أراد إلا أن يُسهم في تبديد حيرة أبيه.. أراد أن يُذهب عنه الترددَ في الانصياع للأمر، فمثلُه لا يعصي لله أمرًا حتى وإن لـــم يفهم.. فأجاب الابن على الفور دون تردد وبعد ثانية واحدة من إخبار الأب له عن منامه ودون أن يفكر، فثَمَّةَ أوامرُ لا نتلافاها بالعقل وإنما نتلافاها بالقلب.. أجاب الابن: افعل يا أبي ما تؤمر به.. كانت لحظة حاسمة في تاريخ البشرية حين نطق الابن بهذه العبارة.. لقد أراد الله أن يسُنَّ قانوناً مهماً وهو الامتثال بالقلب وليس بالعقل.. وامتثال القلب هو الحب.. الحب الكبير.. بل الحب الأكبر.. من أُحبُّه أؤمـــن بـــه.. ومن أحبُّه أمتثلُ لأوامره.. من أحبه أمضي خلفه وأنا معصوب العينين.. من أحبُّه لا أسألهُ بل أجيبه.. وذلك لأن الخير كلَّ الخـــير هو المضمون الأساسي لمعنى الحب.. فما بالك بحب الخالق لمخلوقه.. وحب المخلوق لخالقه.. إن العلاقة بين الربِّ وعبده ليست علاقـــةَ عقـــل فقط.. بل علاقةَ قلب أيضاً.. علاقة حب.. تصل من

العبد أحياناً إلى حد العشق. فالأمر كان صعباً ولا يُجيزُه عقل.. اذبحْ ابــنَك.. ولعــل الخليل سأل نفسه لماذا يا ترى يريدني ربي أن أذبح ابنــي؟ هل هو امتحان لشجاعتي أم يريد الله أن يضرب مثلاً؟ وأي مثل؟ ولأن قلب الأب كان ينصهر ألماً وعقلَه تمزقه الحيرة فإنه لجأ إلــى ابــنه لعل الابن يفر فَيُنَجّى الأبَ من الصراع الرهيب.. ولكن الابن قالها: افعل يا أبي ما تؤمر به.. افعل لأنك خليلُ الله وحبيبُه فلا مجال لأن تسأله أن يشفق بك.. وأنت لست في حاجة إلى الإشفاق بل فــي حاجــة إلى الرحمة.. وما دمت تؤمن أنه الرحمن الرحيم فسلِّمْ الأمــرَ، مــثلما أسلمتَ له.. فهذا هو صلب رسالتك.. هذا هو صلب الديــن الــذي تحمله وسيصل من عندك إلى آخر الأنبياء.. من يُسَلِّمْ يَسلَمْ.

وعــند هذه اللحظة المهمة من تاريخ الإنسانية.. والأب يمسك بسكينة.. والابن ينبطحُ كشاة.. نزلت الرحمة من السماء وفُدِيَ الابنُ بِذِبْــحٍ عظــيم.. أنــزل الرحمن الرحمة على قلب خليله ففرح الأب الفــرحة الصغرى لنجاة ابنه.. وحين فرغ من الفرحة الصغرى تأمل فــيما حدث فأدرك الفرحة الكبرى وهي أن الرحمة هي أساس الحب الإلهــي للإنسان.. الرحمة هي النعمةُ المهداةُ.. أي الهديةُ العظمى.. والرحمة تأتي من قلب الحب.. والحب لا يكون إلا للخير.. ومن أجل الخير.. ومن يحب فهو رحيم أي تتنزل الرحمة في قلبه.. لا يحب إلا مــن كــان رحيماً ولا يرحم إلا من كان محباً.. الحب يرقق القلوب ويصفي النفوس ويُشَذِّب الطباع وينقِّي الضمائر.

ولعـل الشـاة التـي ضحى بها هي أسعدُ شاة في التاريخ لأنها اسـتُخدِمت لضـرب المثل.. مَثل الرحمة.. في يوم جُعِلَ عيدًا واقترن بـزيارة الإنسـان لبيت الله شكرًا وامتناناً.. أنت تذهب إلى هذا المكان وتدور حول الأحجار وتلمسها وتقبلها.. والذي ينظر إلى ظواهر الأمور قد يتحير من طقوس هذه الزيارة.

ولكن الذي يلمس الحقائق من جذورها يدرك أن هذه الزيارة بهذا الشـكل ترمـز إلـى معنى الامتثال في ذكرى يوم الرحمة، وفي نفس المكـان الذي اجتمع فيه الأب والابن ورفعا البيت العتيق بيت الله فتهفو القلـوبُ إلى ذلك المكان لاستعادة المعنى البليغ وللشعورِ بالاقتراب من التراب الذي مشَتْ عليه هذه الأقدام الطاهرة وصنعت منه حجارة البيت وانبَثَقَـتْ منه عيونُ الرحمة لترْوِيَ القلوب الظامئة.. فيا سَعدَ من يذهبُ إلـى هـناك.. ويا ليت الزمان يعود لنعيش لحظات تَنَزُّلِ الرحمةِ ولكن لـيس من طبع الزمان الرجوعُ إلى الوراء فلا يبقى لنا إلا المكانُ باعثاً علـى الـتذكر والتدبر وما حياةُ الإنسان إلا زمانٌ ومكان.. تعبُرُ الأيام ويبقى المكان شاهداً ومذكرا ونشتمُّ منه عَبَقَ الزمان الجميل.. ويا لحكمة الله حين يغري الإنسانَ بهذه الزيارة فيَعُدُّه بالخلاص من ذنوبه ليعود كما ولدتـه أمُّه، وذلك عين الرحمة في يوم الرحمة.. فالهديةُ هنا تعبِّر عن طبيعة المكان وما يحمله لنا من الذكريات بشرط أن تنفعَ الذكرى.. وكما يذهـب الإنسـان إلـى ذلك المكان المقدس حرًّا فإنه يعود مُحرَّرًا ليبدأ صـفحة جديدة مكتوبًا على رأسها بسم الله الرحمن الرحيم وفي ختامها أنْ صدَقَ الحق، وموقَّعةً من عبد حرٍّ ممتثلٍ للحبيب.

معنى البيت

الألفة هي مشروعُ حبٍّ.. إنها البداية أو التمهيد.. إنها تعني أن الحب قادم.. والألفةُ هي شعور قلبي قبل أن تكون إدراكاً عقلياً.. أي أن الألفة تُصنف كعاطفة وليست كمعرفة.. وبالرغم من أنها تقوم على الإدراك المعرفي إلا أنها في جوهرها هي المعرفة القلبية والألفة تجلب من ورائها مشاعرَ سارةبالطمأنينةوالسرور، والاشتياق يحدث إذا افتقدتَ ما ألفتَ، أي إذا ما ابتعدت عنه أو ابتعد عنك، والإنسان لا يستطيع أن يعيش في هذه الحياة إلا إذا ألِفَ بعضاً منها وإلا تصبح حياته جحيماً، فعكس الألفة الاغتراب، وهو مجموعة من المشاعر غيرِ السارة فتبدو الأشياء بعيدةً مخيفة موحشة قاتمة وأيضاً غامضة، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش مع إنسان آخر إلا إذا ألفه، ولا يستطيع أن يستعيد في ذاكرته لحظاتٍ من زمان مضى إلا إذا كانت الألفة مع هذا الزمان هي الشفيع للتذكر، فالإنسان ينسى أو يتناسى زمنَ الاغتراب.

الإنسان.. والمكان.. والزمان.. ثلاثيةُ الحياة.. فلا حياة بدون إنسانٍ آخرَ، ولا حياة إلا في مكان تحبه، ولا حياة إلا برصيد من الذكريات عن زمن جميل.

حاول أن تستعيد ذكريات حبّك الأول.. ستقفز إلى ذهنك ثلاثةُ أشـياء متلاصقةٌ أو ذائب في بعضه بعض هي: حبيبك والمكان الذي يعيش فيه وعَبَقُ الزمان الذي صاحب حبك.. لا يمكن أن يسقط شِقٌ من الثلاثة: الحبيب.. المكان.. الزمان.

لعلك كنت وقتها في العاشرة من عمرك أو زد على ذلك عاماً أو عامين على الأكثر أي دون سنّ المراهقة وهذا يعني غيابَ أحاسيس الجسدِ البحتة، أي أنك كنت تحب بملء قلبك فقط وعقلك كان عاجزاً عن الإدراك الكامل للمعاني والمفاهيم أي أن قلبك هو الذي تصدى فقط للحب، وربما كان هذا هو الحب القلبي الوحيد في حياتك إذ ما جاء بعده ربما يكون قد تلوث بإلحاحات الجسد وحسابات العقل.

ولعلي أستطيع أن أصف لك وجه حبيبتك رغم أنني لم أكن مصاحباً لك وقتَها كانت صاحبةَ أجملِ وجه خلقه الله، كانت تطل عليك كالبدر في اكتماله منيرةً مؤنسة، وكالوردة على غصنِها نضرةً عميقة في لونها، نفاذةً في رائحتها مبهرِةً في تناسقها كان قلبك يخفق بعنف حين تراها، ولم تكن تملك إلا التطلعَ إليها على استحياء لم تكن قادراً على النطق أو ربما كنت تهمس بكلمة واحدة تظل ترددها: أحبكِ.. أحبكِ.. أحبكِ.. ورغم حداثة السن فإنك كنت تَغْنيها بكل الصدقِ في هذا العالم كلِّه.. وفي الحالات التي كانت تغيب عنك كنت تحج إلى بيتها، لم تكن تفصل بين حبيبتك وبين المكان الذي كانت

تعيش فيه كنت تحمل نفسَ المشاعر لبيتها وكنت تطوف حولَه وكان قلــبك يضــطرب حيــن تقترب منه كانت رؤية البيت تُعَوِّضُك عن افــتقادِك لوجــه حبيبتك يا سبحان الله حين يرتقي المكان إلى أهمية الإنسان فيعشقُه الإنسان ويهفو قلبه إليه ويشعر بأقصى درجاتِ الأُلفة معــه، شــيء غريــب أن يَشِعَّ الطوبُ بمعانٍ وِجدانيةٍ والحقيقة أنه لــيس الطوبَ ولكنه المعنى الذي ارتبط بهذا الطوب فإذا أنت هللت ناحــيةَ البيت تشعر بأن حجارته ترحب بك وتشعر بأن قلبك يسابقك ناحيــته مجــروفاً بالحنيــن، لــيس حجارةً جرداء وليس طوباً أصمَّ بل حياةً وروحاً ومعنى وعواطفَ ولا تفكر فيما هو أبعد من ذلك أي لا تفكــر فــيما هو أبعدُ من حدود قلبك، فإن الحب بالقلب والإيمانَ بالقلــب واللمسَ بالقلب إنه الامتثالُ، الامتثال لدعوة الحبيب فهذا هو بيــت الحبيــب، وزيــارة البيــت كزيارة الحبيب وهي ليست زيارةَ الحجــارة ولكــنها زيارةٌ لمعنى الحجارة بل إن هذه الحجارةَ تشبَّعت بأنفــاس الحبيــب كمــا لامسها الحبيب بيديه ومشى عليها ونام بين جنَبَاتِها.

يــا لَعشقِ الإنسانِ للمكان يالَهَوَسِ الإنسان بالزمان.. وكما أن المكانَ لا ينفصل عن الإنسان فلابد أن يوجد المكان، وأن يصاحبهما الــزمانُ، ومــن هذا الزمانِ تصلنا أفكارٌ وألحان وحكايات ونصدّقها لأنهــا تَلْقَــي من القلب الاستجابة وتصادف من النفس هوًى فإذا بك تحب الزمان زمانَ الحبيب مثلما أحببتَ مكانَه ما أروعه زماناً زاخراً بالنفائس، ما أرقه زماناً نعمنا فيه بالصفاء، يبدو الزمان في ناظريك

كأنـــه كائن حي ينبض ويشع، له لون ورائحة وطعم وهذا هو العجَب العُجـــاب أن يكـــون للزمان لونٌ ورائحة وطعم، ولِمَ لا؟ وهو زمانُ الحب الصادق زمان البراءةِ والطهارة.

ولعلـــي حين طلبت منك أن تتذكر حبك الأولَ فإنني أكون قد دعوتـــك إلى رحلة عبرَ المكانِ والزمان، رحلةٍ تُرَوِّح عنك وتُذْهِب الكدرَ وتمسح عنك الاكتئاب أو رحلةٍ تقوم بها حين تحاصرك الهمومُ أو ينتابُك الفُتور أو يُميتُكَ الضجر، رحلةٍ تُنْعِش الخاطر وتُبْهِج النفس وتســـر القلب فيصفو العقل مسترجعاً لحناً أو مستعيداً أفكاراً ارتبطت بالثالوث المقدس: الحبيب والمكان والزمان.

وإذا كـــان حبيبك قد رأيتَه بعينيك أو سمعته بأذنيك فإن الحب الأعظـــمَ فـــي حياتك قد انبنى داخلِكَ لأنه يجسد أصل خلقِك وصميم كـــيانك فـــتدركُ تلقائياً خالقك وخالقَ هذا الكون، وحين تسأل أين هو يقال لك (إنه معنا بعلمه وقدرته ورحمته)، ولكي يرحمنا الله من عذاب الشوق وألم الحنين، جعل لنا بيتاً نزوره هو أولُ بيت وُضِعَ للناس هو بيـــت الله هو بيت بُني بأمرٍ مباشر من الله، امتثل للأمر أبو الأنبياء وابنه جدي وجدك فنحن من صلب الذي بُنى، وهذا المبنى دليلُ إيمان ودليل حب فمن يؤمن يمتثل ومن يحب يمتثل، وتشعر بالألفة من بعيد وهـــذا أمر غريب أيضاً أن تألف مكاناً من قبل أن تراه، وذلك لأنك تعرف من قبل أن تراه أنه بيت الله، ولذا ففؤادك يهفو إلى هذا البيت مثلما تهوى أفئدةُ كل الناس إليه. وحين تُقْبِل عليه من بعيد ينخلع قلبك

فــرحةً ورهبة وحين تقترب وتقترب تلامس قلبك الألفة فتهدأ وتسر وحين تطوف من حوله تنفصل عن العالم من حولك، ولا ترى أمامك ولا تسمع إلا الله فهذا البيت يمنحك شعوراً بأنك في أقرب نقطة إلى الله ولا تــرى البيــت طوباً وحجارة وإنما تراه نوراً يفيض بالرحمة تــراه معنى يفيض بالجلالة وتستعيد زمانَ من بناه فتحبُ هذا الزمان وتخال نفسك وكأنك عشت معهم في هذا الزمان أو هكذا كنت تتمنى، ولذا فأنت تشد الرحال للمكان والزمان معاً.

ثم تدور في المكان وَفْقَ خريطةٍ وترتيبٍ وُضِع لك ومقتدياً بما كان يفعله الخليل ولا تشعر بأنك تؤدي طقوساً ولا تشعر بأنك تتحرك بقدمــيك وإنمــا قلبُك هو الذي يسعى وروحك هي التي تطوف إيماناً بالمعــنى البليغ وراء كلِّ حركة وخلف كل لفظ.. والأهم من ذلك هو شعورك بالامتثال، الامتثالِ لمن تحب.

وأتصــور أنه منذ ذلك الوقت اكتسبتْ كلمةُ بيتٍ معنى أساسياً وهــو الأمانُ والطمأنينة ومن يفتقد هذه المشاعرَ في البيت فهو ليس ببيــت، فالبيــت ليس حجارة وليس سقفاً وجدراناً وليس أثاثاً وتحفاً. فالبيت معنى وبإيجاز شديد فالمعنى هو الحب.

السيدةُ العظيمةُ اسمُها لندا

لعلـــه تناهَى إلى سمعك يا سيدتي أنه تم اختيارُك ملكة المودّة والرحمة، وهو اختيار تلقائي حرٌ وليس عن طريق الوراثة أو التعيين الجبري، وأن تكوني ملكة بمعنى أنك الأولى في أعلى مرتبةٍ ومكانة، وفـــي أزهـــى مقـــام، ولعله مقام شبيه بمقام الفُضلّيات اللاتي وُعدْنَ بالجـــنة أو مقامِ القديسات الطاهرات، وهن جميعاً مفضلاتٌ عند الله، ومعـــذرةً فلســـت أنا المؤهّلُ لتحديد مقامك العلي فذلك أمر من أمور الله.

لعلكِ كنت امرأة عادية أحبت وتزوجتْ وأخلصت، ومن قبلها فتاة عادية تغني وتدرس وتلعب ومن قبلها كنت مراهقة طبيعية تكابد مشـــاعرَ متناقضة ومن قبلها كنتِ طفلة نشأت في بيت عاديٍّ متوسطِ الحـــالِ ولكن أجزم أن الشيطان لم يجرؤ على الاقتراب منه لأن أهلَ البيـــت كـــانوا لا يكفـــون عن الصلاة وعن ترديد اسم الله آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار.

لعلـــكِ استنشقتِ في طفولتك هواء نقياً مشبعاً بالحب، أكبرَ فيه الـــرجلُ زوجـــته وقدَّست فيه السيدة زوجها، فارتسم في ذهنك أجل

معنى للزواج ووقر في ضميرك أسمى القيم التي تحكم علاقة شريكَيْ الحياة.

ورغم أنه ليس لديَّ معلوماتٌ دقيقة عن طفولتك إلا أنني أستطيع أن أحدد لك ملامحها بدقة متناهية لأن من يتم اختيارها ملكة المودة والرحمة لابد أن تكون طفولتُها هي الأساس الصادق والقاعدة الرصينة التي بُنِيَتْ عليها شخصيتها، لابد أن طفولتك كانت هي التربةَ الصالحة الثرية الذكية التي نشأت فيها شجرتُك المباركةُ والتي أورقت وأزهرت وأثمرت بعد ذلك حين صرتِ مراهقة ففتاة ناضجة، فزوجة صالحة، ثم حين جاء موعد الاختبار، فنضجْتِ بجدارة وصرتِ من أفضل نساء العالمين.

أيتها الطفلة البريئة لقد تغلغل الله في أعماقك منذ نعومة أظافرك وترددْتِ كثيراً وكثيراً جداً على بيت الله فأحببت المكان وأضأت الشموع ونذرت النذور ووقفت بالباب الأعظم تدعين وتبتهلين وتبكين من أجل خلاص النفس وطهارة القلب، في طفولتك لم تعرفي إلا المحبة طريقاً إلى الله وطريقاً إلى قلوب كل البشر حتى الأشقياءِ والأشرارِ منهم، فلقد انتزع الله من قلبك كل غلٍّ وكل حقد وكل غيظ وافترشه بالصفاء والتسامح والتواضع فكنت قريبة ودوداً ورحيمة، أي عرفتْ المودة والرحمة طريقهما إلى قلبك قبل أن تصيري زوجة.

ولعلك كنت تخطئين مثل بقية الأطفال ولكن الذي كان يميزك هو ذلك النموُّ العملاقي المبكر لضميرك الذي كان يوجعك ويصحح

لك المَسَارَ ويهديك لسواء السبيل، لقد عرفتِ العذاب قبل موعد العذاب فكنت تنطوين وتنعزلين وكأنك تعاقبين نفسك، كنتِ لا تنشغلين بلعب الأطفـــال وكان الحزن كثيراً ما يرتسم على وجهك الصغير فينزعج والـــدُك، كنـــتِ لا تشكين وتتحملين وحدك آلاماً مبهمة غامضة، ولم يكـــن أحـــد يعرف ولا حتى أنت أن هذه آلامُ التطهُّرِ والارتفاع إلى مقامات أعلى.

ولعلـــك كـــابدتِ الألمَ المُبَرِّح في مراهقتك حينما لبستْك لأول مـــرة الرغـــباتُ التي بعثتها الغرائز، ولقد قاومتِ وقاومتِ لتحتفظي بـــبراءتكِ، صارعتِ أمواجاً عاتية تجتاح مَنْ هن في مثل سنك ولكن وصـــلتِ إلـــى شاطئ النضوج بسلام. لأن الله يرعاك ويحافظ عليك ليُسْـــلمكِ نقـــيةً كمـــا ولدتـــك أمـــك إلى الرجل الذي أحبك وأحببته وتزوجتما.

ومثلما كنت أنت غير عاديَّة كان هو الآخرُ رجلاً غير عادي، وغـــير العاديِّ فيه كان قلبَه الذي كان باتساع الأرض والسماء طيبةً وسماحة وبساطة وعطفاً وحناناً، وكان أيضاً بريئاً براءةَ الأطفال، بل هو كلُّه كان طفلاً كبيراً، وكان قادراً على أن يُفَجِّر الضحكات فيُسعِد القلوب المكروهة والنفوس المتعبة، كان عمله أن يسعد الناس، وأحبه كل الناس، وكثيرون من الناس كانوا لا يعرفون سر حبهم له إلى هذا الحـــد الكبـــير الذي يفوق الحدود الطبيعية، كان يجعلك تشعرين بأنه ابـــنُك أو شقيقك أو أبوك ومن يراه لأول مرة يشعر وكأنه يعرفه من

ألــف ســنة، وكان هذا هو نفس شعور حبيبتِه حين قابلته لأول مرة تشعلقت في رقبته كطفلة، وتشعلق في رقبتها كطفل، كانت قصة حب بيــن قلبي طفلين، وكأن العذاب كان قدراً مقدوراً لهذه السيرة في كل مــراحل حياتها، لقد شقيت معه بإهماله لصحته وخوفِها عليه، وكان لديهـــا إحساس مبهم بأن كارثة ما ستحدث ولطالما مزقتها الكوابيس أثناء نومها.

من فرْطِ طيبته كإنسان شعرت بأن هذا الرجل لن تستمر حياته بشـــكل طبيعـــي، ومن فرط حبها له كانت تشعر بأن يد القدر سوف تمتحنها الامتحانَ الكبير الرهيب، ومن فرط حبه لها كانت تشعر أن السماء تريد أن تختبر مدى حبها لله خالقه وخالقِها.

وأُصيب بالضربة الأولى ونجَا منها ولكن لم يتعظ تمادى أكثر وأكــثر كــبطل أســطوري يمضي لحتفه بينما هي كانت ترقبه بألم وجــزع وكأنمـــا تشـــاهده على المسرح وهي تعرف بقلبها وعقلها مـــا ســـتنتهي إليه الأحداث. وجاء الفصل قبلَ الأخير وسقط البطل، ولكن لأنه مازال في المسرحية فصلٌ أخير فإن البطل لم يمت وإنما أصـــيب بالعجز الكامل، فقدانِ النطق، فقدانِ إدراك من حوله، فقدان الحركة.

يـــا للعجـــب كان عمله أن يدرك ويَعِيَ ويحفظ ويرتجِل ففقد الإدراك، كـــان عملـــه أن يـــتحرك ويـــدور ويقفز ففقد القدرة على الحركة.

انـــتهى دوره على المسرح الصغير ولكنه لم ينته دورُه على مســـرح الحـــياة، وأصرَّتْ الزوجة أن تكون هي المؤلفة والمخرجة للفصـــل الأخير لكيلا يكون أخيراً، لكي يستمر البطل، لقد أقسمت أن يستمر البطل فهي تؤمن بقدرة الله إلى أقصى حد، إنه الله القادر على إحياء الموتى، إنه الله القادر على أن يُصْعِدَ من يشاء إلى السماء، إنه الله المطلـــع على عَظمة هذا الرجل ومقدرته ونقائه وطيبته، إنه الله المطلـــع على مدى ألمِ قلبها وعذاب زوجها، وهي التي لم تخطئ في حق ربها مدى حياتها وهي التي عبدت ربها بإخلاص وحب.. لا .. لا .. مســـتحيل أن تُسْـــدَل الستارة إنها فقط استراحة وسيعود البطل للظهور، وسيضحك الناس، ويسعدون.

شـــعرتْ بأن العناية الإلهية وهبتْها لهذا الرجل العظيم لترعاه فـــي محنته، ليلَ نهارَ، عن يمينٍ وشِمال، من فوق وتحت من خلف وأمـــام، إحاطـــة كاملة، إنها الرسالة المقدسة، الوفاء للزوج الحبيب، امتـــثالاً لأمـــر الله، وامتـــثالاً لأمر الحب إنه الإخلاص والوفاء، إنه العطـــاء والتفاني إنها المودة والرحمة، لقد تعاهدا على ذلك أمام الله، في السراء والضراء، الحلوةِ والمرة، أيامِ الهناء وأيامِ الشقاء.

عارضت الجميع أصرتْ على أن الأملَ موجود، الأملُ مائة في المائة، لأن الأمل في الله، وتألم المختصون من أجلها لأنها تحرُث فـــي المـــاء. ولكنها صمدت وأصرت، ولن يكن حرثاً في الماء، لقد أظهـــرت تحسُّناً وتقدماً، حقيقةٌ أن التحسنَ بطيء .. بطيء .. بطيء جداً، ولكنها بفضل الله تتقدم للأمام.

تدخـــل عليه وأنت تزوره فتجدُه جميلاً نظيفاً تفوح منه أطيبُ الروائح وتجد بجواره مَلاكَه الحارس مبتسمةً متفائلة مستبشرة صامدة صابرة واثقة مؤمنةً، سيشفى بإذن الله، سيسترد وعيه كاملاً، سينطق، ســيتحرك، ويزوره أصدقاء وينكرُه أصدقاءُ آخرون، هذه الدنيا كما نعرفها هكذا الناس، هكذا الناس!

ومازالـــت الســـيدةُ العظيمة تؤلفُ وتخرجُ أعظمَ مسرحية في الوجود ولْيكنْ الفصلُ الأخير بعنوان المودة والرحمة، وسيظهر البطل علـــى المســـرح كآيةٍ من آياتِ الله، كالمعجزة وفي نهاية المسرحية سيصـــفق الـــناس، وسيبكي بعضُ الناس الذين لم يحسنوا الظنَّ بالله، وسيُصِر البطل الأسطوري بعد أن تنزل الستارة وتعاود الارتفاع، أن يدعـــو المؤلفـــةَ المخرجَة ليمسكَ بيدِها ويُلَوِّحَا معاً للجمهور الحبيب وفي النهاية يطبع على جبينها قُبَلَ الامتنانِ، هكذا أمام كلِّ الناسِ.

أزمةٌ عابرةٌ

حيـنما تَعْـبُر بنا أزمة نظنُّها النهاية، خُلِقَ الإنسان هَلُوعًا إذا مسَّـه الشـرُّ جَـزُوعًا، يجف الحلق ويزوغ البصر، ويرتعش القلب وتـتلوَّى الأمعـاءُ ويضيق الصدر، وسريعاً يهبط ظلام يسد الطرق فنشـعر بوطأةِ الحصار الذي لا فِرَارَ منه، نعجز عن التفكير الهادئ حتى ولو كنا ذَوِي علم وخبرة، وقد يجيءُ الفرج أو لا يجيء.

فـإذا جـاء الفـرج تزول الغُمَّة ونفرح كأطفال، وإذا لم يجئْ نصابُ بالإحباط ثم الاكتئاب، ثم يكون علينا أن نغير من حياتنا لِتُوائِمَ توابع أزمة قد تمتد إلى أجل غيرِ محدد.

والأزمـة قد تكون حادة وقاسية كالصاعقة المباغتة التي تهبط علـى الرأس فتصيب الإنسان كلَّه بالشلل التام فلا يقوَى على حِراك، فـإذا أفـاق يتعجل حَّلا حساماً وسريعاً لأزمته، فإذا تلكَّأ الحل ازداد صاحبنا قلقاً، فكلما ازداد قلقاً تعذَّر الحل فيتصور الإنسان أن لا شفاءَ من أزمته ولا خروج من ورطته فتتعقد الأمور أكثر وأكثر، وخاصة إذا كان الحل الحاسم لا يأتي إلا في ظل هدوء واعٍ ويقين راسخ يتيح رؤيةً أشمل وتقويمًا أوقع من أجلِ حلٍّ أمثلَ.

وعجـــز الـــرجال يأتـــي عادة مباغتاً بلا تمهيد وبدون أسباب واضـــحة، يفاجَـــأ به الرجل وهو يشرع في الإبحار أو هو في وسط البحر تماماً، وفي هذه الحالة يكون هناك شاهدة على أزمته المفاجئة وهي الطرف الثاني شريكتهُ في الرحلة البحْرِيةَ، فإذا كانت هذه هي المرة الأولى للفشل فإنها قد تعبُرُ بسلام بحدٍّ قليل جداً من القلق وحدٍّ أعلـــى من التفاؤل بأن المشكلة ستنتهي تلقائياً، فإذا تكررت ثانية في محاولـــة الإبحـــارِ في بحر الغرام فإن المشكلة الحقيقية تبدأ وتكون بالنسبة للرجل مشكلة المشكلاتِ وأزمةَ حياته الحقيقية.

الـــرجل الأول: انـــتهى الفرح بسلام، تم زِفافُ ابنته الوحيدة، وكالعادة أقامت العروس بالفندق ليلتَها الأولى فقرر هو الآخرُ الإقامة ذاتَ اللـــيلة بالفندق مع زوجته أمِّ العروس، جاءت حجرته ملاصقةً لحجرةِ ابنته.

لـــم يكـــن غريـــباً أن يفكـــر الأب والأم في وقت واحد أنهما سيحاكيان العروس ليستعيدا ذكرى ليلتهما الأولى معاً، كان هو مهيأً بالكـــامل للإبحارِ منذ أن أغلق بإحكام باب الحجرة خلفهما، قفزاً قفزاً للفـــراش، داعبته زوجته بأنه لن يكون بالقطع في مثل كفاءة ليلتهما الأولى، وبالتالي لن يكون في مثل كفاءة زوج ابنته.

لم تعجبه الدُعابةُ، بل استسخفها أيضاً، وسَرعان ما تراءت له الصـــورة في ذهنهن صورة ابنته في ذهنهن صورة ابنته عارية مع عريســـها، أُضرِمَت النارُ في قلبه، لم تخطر على خياله هذه الصورة مـــن قبل، ربما كان يدرك أن هذا حتماً سيحدث ولكنه أبداً لم يره في

عقله كصورة مكتملة، نجح بعض الشيء في إبعاد هذه الصورة التي زلزلته عن رأسه وبدأ في رحلة إبحاره بتفوق نسبي، ولكن الصورة عـادت أكـثر إلحاحاً، صورة ابنته مع عريسها في الفراش، طرأت علـيه فكرة طائشة أن ينهض لينتزعَ ابنتَه من عريسها، فليوقفْ هذه المجـزرة وليمـنعْ هذا الإسفافَ، أو هذا الانحراف، ابنتي مع رجل غريب!! هل هذا معقول!!

لاحظـت زوجتُه صمته ولم تستطع أن ترى وجهه في الظلام لـتحلظَ الأسى الذي ارتسم على وجهه وكأنه فقد عزيزاً عن طريق المـوت، وفجأة توقف عن الحركة، عجزٌ مفاجئ، وتعجبت زوجته، فهـذه هي المرةُ الأولى في تاريخ علاقتهما الممتدةِ على مدة خمسة وعشـرين عاماً، حاول جهده فلم يستطع، انسحب، هونت عليه الأمر مـتعللةً بالتعب الذي لقياه في الإعداد لزواج الابنة الوحيدة. في اليوم التالـي رحلت العروس مع زوجها إلى خارج الوطن في رحلة شهر العسل، تعامل بجفاء مع الزوج، عاد هو وزوجته إلى البيت وبسرعة أراد أن يـبحر ثانـية ليختبر نفسه، وبمجرد أن اقترب منها عاودته صورة ابنته وهي عارية مع عريسها في الفراش، فأصابه العجز مرةً ثانـيةً انهـار فـي داخلـه، تصبب منه العرق لم يقُلْ كلمةً واحدة، انسحبتْ، صمَّمت هي الأخرى، ثم فشلت المحاولةُ الثالثة والرابعة.

الرجل الثاني: لم تكن هناك صعوبة واضحة في نشأته، ولكن المحافظـةَ كانـت هي الطابعَ السائدَ في البيت ربما إلى حد التزمُّت

وخاصـــة من جانب أبيه، كان متفوقاً طوال مراحل دراسته ولكنه لم يتميز كثيراً في أعماله بعد تخرجه وتزوج بالطريقة التقليدية وإن كان قــد شــعر بانجذابٍ طاغٍ ناحيةَ عروسه أثناء فترة الخطوبة، كان قد وصــل إلــى أقصى درجات المعاناة من الحرمان، إذ لم يلمس فتاة طوال سنين عمره التي سبقت زواجَه، وجاءت الليلة الموعودة وأغلق الــباب دونهمــا، فأجاتــه عروسُــه بتلميحاتِها المستورة ثم بكلامها الصريح عن توقعاتِها منه عند بدء الإبحار، وجلجلت ضحكاتُها التي لــم يســمع مــثلها من قبل، وفجأة تجردت من ملابسها وسحبته إلى الفراش، وفي أثناء ذلك قالت كلمة اعتبرها بذيئة غيرَ أنها من الممكن أن تُعَدّ عادية عند بعض الناس، وفجأة وجد نفسه عاجزاً بعد أن كان منــتفخاً بالرغــبة واللياقةِ الكاملةِ لبدء أول رحلة بَحرية في حياته، وتكــرر الفشــل فــي الليلة الثانية وحتى الليلة العاشرة، وهنا بدأت العــروس تضــجر ثــم لم تستطع أن تمسك لسانها عن قذفِه بكلماتٍ لاذعةٍ وساخرةٍ، وأصابه قلقٌ تطوَّرَ إلى حزنٍ قضي على أيِّ فرصة لشفاءٍ تلقائي قريب.

الرجل الثالث: رغم أن الفتور قدرٌ مكتوب على أي زواج تأكل مــن عمره السنواتُ إلا أن حبهما ظل على التهابه رغم مرورِ عشر ســنوات على الزواج، وساعدهما ذلك على علاقة زوجية في أحلى وأمتعِ صورها حتى في أشد البحار عتيًّا.

وما مرةٌ إلا وسَكِرَا بخمر النشوة، وفي ليلة صفت فيها القلوب مــثلَ صفاء ليالي الصيف المقمرة ساعدت على مزيد من النشوة إلى

حـد السـكرِ التام بدأ هو معها رحلة مصارحة عن كل ماضيه قبل زواجه منها ليقولَ لها عبارة واحدة خلاصةَ لحكاياته أنها أجملُ امرأة قابلهـا في حياته التي كانت تزخَرُ بإبحار غير محدود، وأرادت أن تجاملــه بالمثل لتقول له في النهاية إنه أقوى وأفضلُ رجل في العالم فحكت له عن تجربتِها الوحيدةِ قبل زواجها منه والتي وصلت إلى حد أن تكون علاقةً كاملة برجل آخر.

أفاقـا من خمر النشوة وناما، وفي الصباح قام بِشبهِ اكتئاب، ذهــب إلــى عمله بدون شهيَّة، افتقد تركيزه ولمَعَانَ عقله، عاد إلى البيت مُثقَلاً دعتْه إلى الإبحار في الفراش فلم يتحمس، ولكنها أصرت فأذعَـن ولكنه لم يستطع على الإطلاق إذ بمجرد أن ضرب بمِجْدافِه تــراءت فــي مخيلتِه صورةُ الرجلِ الذي أقام علاقة مع زوجته قبل اقــترانه بها، لم يُفْصِح لها عن شيء وإن تعجبت، وتكرر الفشلُ بعد ذلك عدةَ مرات إذ لم تفارقه أبداً صورةُ هذا الرجل في كل مرة حاول فيها أن يقترب من زوجته.

الـرجل الــرابع: يبدو أن هذا الرجلَ كان يظن أنه سيُخلَّدُ في وظيفــته وربمــا ســيخلد فــي الحياة أيضاً إذ هَزته هزاً شديداً تلك القصاصــة الورقية التي وصلته منذ عشرة أيام ثقيلة أنَّ مدة خدمته ستنتهي بعد هذه الأيام العشرة.

وأنَّ عليه أن يرحل، ربما كان ناسياً أو متناسياً، الآن قد أفاق، والآن يســتطيع أن يفســر ســر تهــاون مرءوسيه حديثاً في العمل

وعصـــيانِ أوامره وعدم المبالاة بتوعُداتِه إذ كان شديد القسوة شديد الحزم، أفرغ محتويات مكتبه، غادر المبنى الحكومي لآخرِ مرة، عاد إلى بيته مُثْقَلَ الخطوات وقد تملكته كآبة.

حاولـــت زوجته أن تهوّن عليه الأمر هيأت له جوًّا رومانسيًا مـــزودًا بكل مستلزمات الإبحار، حاول أن يثبت جدارتَه فبذل جهداً فائقاً تلَقَّى عواقبَه في التوّ واللحظة حيث أصيب بأزمة قلبية.

ورغم شفاء قلبه إلا أن قدرتَه على الإبحار تعطلت لوقت ليس بقليل، وهذه هي الدنيا كما نعرفها، وهذا هو الرجل في ضعفه.

هؤلاء الرجال العظماء وقلوبهم الذهبية

تحفــل الأرض بالثروات في باطنها وبالخيرات فوق سطحها، ولــيس أعظم من التراب مادة فقد خُلق منه الإنسان، المعدن الترابي هو أصل الحياة، ويتواصل باطن الأرض مع سطحها في دورة الخير، فذلــك الباطن يستوعبُ الماء ويحنو على جذور النبات فيمدُها بغذاء مــتكامل أودعــه الله فيها مثلما أودع كل عناصرِ النماء في لبن الأم الذي يقطر في فم طفل وليد، يا لَروعةِ اكتمالِ العناصر بقدر ونسِبٍ، سبحان الذي خلق الحياة وخلق معها عناصرَ استمرارِها.

وبذلــك لا يهلِــك طفل من لبن أمه ولا يتلَفُ زرع من باطن أرض تحــتوي جذورَه.. ومثلما يضُخُ باطنُ الأرض مصادرَ الحياة ليعــيش بها من يسكنون سطحَها فإن هذا الباطن الثريَّ يستوعب كل مـــا انتهى دورُه من الأحياءِ على سطحِ الأرض، إنها دورة متكاملةُ الحلقاتِ، من التراب بدأْنا، وعلى سطح الأرض نسعى، وإلى باطنها نستقر إلى حين.

ورغم أن أرض الله واسعة والتراب كثير إلا أن القيمة الحقيقية لا تقــدَّرُ بمـــال، فقنطار تراب خير ألفَ مرة من قنطار ذهب، فهذا

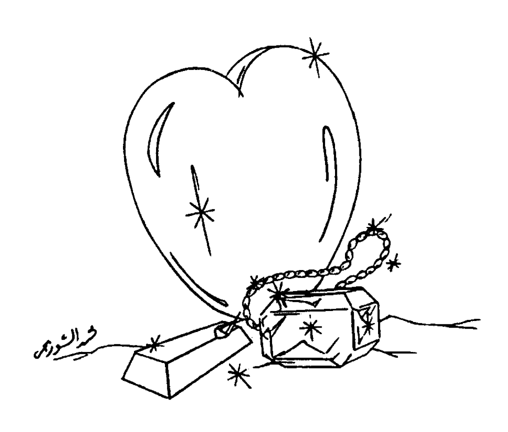
الـــتراب يحتوي على عناصرِ حياةٍ يهبُها لمن يلامس ذرّاته، أما هذا الذهب فلا يحتوي إلا على عناصرِ تماسُكِه وبقائه ولَمَعَانه.

الأرض كـــريمة وســـخية، الأرض تعطي، أما الذهب فأناني يحـــيط بالأعـــناق مزهُوًّا، وبالسماحة أرض تتقبلنا في كل الأوضاع فنسعى فوقها بأقدامنا، وتستند إليها جنوبُنا في رقادنا، ونستأمنُها على أجسادنا بعد موتنا، وفوق كل ذلك تهبنا الثرواتِ والخبرات.

ولذلـــك ليس غريباً أن يجثُو الإنسان على ركبتيه ويقبّلَ تراب أرض عاش بين جنباتها وأكل من خيراتها واحتوت أمّه وأباه وبناته وبنيه، وهذه الأرض تسمى بالوطن، إذن الوطن ترابٌ وأحبَّاءُ وتاريخٌ شخصي، فالوطن ملكية خاصة لمجموعة من الناس تربطهم صِلاتُ دمٍ، وصـــلات حـــب تجعلهـــم متشابهين في الشكل وفي المضمون، يولدون ويتناسلون ويعملون ويمرحون ويفكرون وينفعلون ويبدعون أجيالاً وراء أجيال فوق مساحة بذاتها من الأرض في موقع معين من الكرة الأرضية تزورها الشمس وينزل لها الماء بقدر معلوم.

وعلاقة الحب بين الوطن وبنيه علاقة ذاتُ طابَعٍ خاص، إنها علاقة لا تبنى فقط على الحب الذي يجيء من العطاء والألفة والقرب من الأهل، بل هي علاقة ترتبط بشعور الإنسان بذاته وكيانه وهُويَّته، إن ذاتي لا تكون إلا بوطن أو ذاتي ضائعة بعيداً عن وطن، أو أنا لا أكـــون بـــدون وطن، أو كلمةُ أنا لا تُنْطَق إلا انتساباً لوطن، فأنا لا تصـــلح وحدها، فلا أستطيع أن أقول أنا وأسكت، أي لابد أن أكمل،

فأنـــا الوطن والوطن أنا، وأنا هذه لا تعني كلّنا، كلنا الوطن والوطن كلــنا، وذلــك لأن "أنـــا وكلنا" نحمل في ذراتنا موادَّ منتقاةً من مادة الوطن أرضِه وهوائه ومائه وشمسه، ونحمل في عقولنا أسلوبَ حياة وأســلوبَ تفكير ورؤيةً خاصة وفلسفة نابعة من حضارة هذا الوطن تراثاً وتاريخاً، ونحمل في ضمائرنا قِيَماً ارتبطت بطبيعة هذا الوطن ديــناً وعــاداتٍ وتقاليدَ، ونحمل في قلوبنا قدراتٍ خاصةً على الحب نابعــةً من بناء روحي خاص قام على السماحة والرقة والمودة ولذا فمــن يستشـــهد دفاعــاً عــن الوطن لا يموت، بل يظل حياً يرزق، والمعــنى هــنا بليغ، بل شديد البلاغة، فالذي يستشهد إنما يدافع عن معنى الحياة، فكيف يموت وينتهي من يدافع عن الحياة، فالذي يدافع عن الحياة يجب أن يظل حياً، الذي يدافع عن الحياة يؤمن بالحياة أي يؤمن بخالق هذه الحياة فكيف يجازى بالموت.



والذي يُستَشْهَد من أجل وطنه أي من أجل أنا ومن أجل نحن ومــن أجــل معنى الحياة فإنه لا يموت، وإنما ينتقل إلى مقام أعلى بالقرب من خالق الحياة.

والاستشـــهادُ والعمـــلُ صِنْوان كلمتان مترادفتان لشيء واحد، فالاستشـــهادُ من أجل الحياة، والعملُ من أجل الحياة، فالإنسان خليفة الله فـــي الأرض لعمارتها، إذن أحد مصادر الحياة هو الإنسان ذاتُه، الأرض بعطائها المادي والإنسان هما مصدران للخير، وهما أيضاً جــاءا مــن مصدر واحد، وهو التراب، إذن فالأصل في الخير هو التراب. وإذا قلنا إن البشر معادن فذلك من أجل أن نحدد درجة النقاء درجـــة الصـــلابة، والمتانة، درجة مقاومة التغيير خضوعاً لعوامل تعرية درجة اللمعان كتعبير عن الجمال، والمعادن التي تتمتع بالنقاء والصلابة، ومقاومةِ الزمن واللمعانِ والجمال هي معادن نادرة، ولذا فقيمتها أعلى ووجودها يُعتبر ثروة.

ونحـــن نستعير صفات بعض المعادن لنصِفَ بها أنفسنا فنقول هـــذا إنسان قلبه من ذهب وعقله من ماس وضميره كاللؤلؤ، والقصد أنـــه إنســـان نادر وثمين وثري وقيِّم رفيعُ الشأن رفيع المكان عالي المكانة، وهؤلاء هم العظماء من البشر.

إذن العظمـــة تكمـــن في القلب وفي العقل والضمير، هذا هو ثلاثـــي العظمة، القلب القادر على الحب والعقل القادر على الحكمة والضمير القادر على ضبط الأهواء.

والحب هنا لكل الناس، والتقدير لظروف الناس، وضبط الأهواء لحماية حقوق الآخرين، هذه هي سمات العظماء والسمة الكبرى التي تستخلص من القدرة على حب كل الناس وتقدير ظروفهم وحماية حقوقهم هي سمة العطاء أي السخاء أي الجود والكرم.

وأنا أعرف بشراً من هذا النوع، وهو نوع نادر، شديد النُدرة في هذا الزمان.

واستحضر في ذهني صورة لرجل من هذا النوع، لا يختلف الناس عليه، بل الجميعُ متفقون على أن قلبه من ذهب وعقله من ماس وضميره من لؤلؤ، ولقد هيأ الله له الطريق ليتبُوأ مكانة رفيعة يرنو إليها الناس عن تمنٍ وعن حسد إلا أنه ظل متواضعاً ودوداً قريباً سهلاً مريحاً بسيطاً، وفتح الله له أبوابَ الشهرة على مِصْراعَيْها إلا أنه لم يبتعد عن الناس وإنما ظل يعيش آلامهم ومتاعبهم وطموحاتِهم وتمنياتهم، وفتح الله عليه في الرزق إلا أنه ظل يعيش حياة عاديَّة لا يرجو منها إلا الصحة والستر، واقترب اقتراباً شديداً من السلطة إلا أنه لم يطر في الهواء، وإنما ظل يستشعر بوضوح ملامسةَ أقدامه للأرض، وأنعم الله عليه بالموهبة فأصبحت كلماته المطبوعة ذاتَ أثر وتأثير ونفوذ يتلهَّفَ عليها القراء ليَستَشْرِفوا الغد ويقرءوا الواقع من بين السطور وليتوقعوا الأحداث إلا أن كلماته ظلت مباشرة وصادقة وبهدوء لم يستغلها في خداع أو مداهَنَة أو

تضـــليل مـــثل مـــن ســـبقوه، لم يرد أحدًا طرق بابه، يسعد بتحقيق الأمنيات العزيزة للطالبين الراجين.

لـــم يخـــذل أحـــداً من العاملين امتحنه المرض فلجأ إليه، إنه ضعيف بالذات أمام المرضى.

لعله يوصف مثل بقية العظماء بأن قلبه من ذهب ولكنني أقول إنه أثمنُ من الذهب فهو من تراب طيب من أرض هذا الوطن.

الإنسان مِسكين

كانــت أمــي رحمها الله تؤكد لي أن أي إنسان مسكين مهما امــتلك مــن أسباب القوة فشكة دبوس من الممكن أن تميته، ومشكلة بســيطة في أسنانه تجعله يفقد عقله من شدة الألم، ولأني كنت جاهلاً غريــراً فإنني لم أعتقد في صحة هذا الرأي.. وكنت أرى من حولي أقويــاءَ كثيرين من البشر بعضهم قوي بماله أو بشبابه أو سلطانه أو جماله.

وحيــن زال عني بعض جهلي عجبت إذ وجدت أناساً مصادرُ ضــعفهم هي ما كنت أعتقده من أسباب القوة فآمنت بأن الإنسان حقاً مسكين.

١- التكافؤ:

المــرأة حقا جميلة ولكنها تكبرني بثلاثين عاما.. هذا يعني أنها فــي الخامسة والخمسين. ولكنها تبدو أصغرَ من سنِّها بعشرين عاما أي فــي الخامسة والثلاثين وبذا أبدو أصغر منها بعشر سنوات فقط ممــا أتــاح لها الفرصة أن تتغلب على شبابي رغم تقدمها في العمر

الحقيقـــي، الســبب فـــي احتفاظها برونقها أنها امرأة بلا عواطف.. وأيضـــا هي ذكية ومثقفة وصاحبة سلطة ولديها مال كثير توظفه في إضفاءِ أبعادٍ جمالية على مظهرها وأسلوبِ حياتها.. والأهم من ذلك أنهـــا تجيد عرض محاسِنها بذكاء التاجر الذي يعرف ماذا يريد كلُّ زبون على حِدة.. وكلما صغرت سن الزبون كلما كان المال هو خيرَ وسيلة للإغراء.

لكنني اعترف بأنني كنت معجبا بها أيضا فأنا وحيد قليل الخبرة انطوائـــي فقد فقْدتُ أمي في سنٍّ مبكرة، أصبحت هذه المرأة الجميلة هـــي محـــور حياتـــي وأعانتني على العمل بحكم صِلاتِها وغيرت صـــورتي الاجتماعيةَ تماما.. وأعطيتها ما أرادت بسخاء أو ما كنت أظـــنها تـــريده.. وتصـــورتُ أننا متساويان أنا بشبابي وهي بمالها وسلطانها وبعض جمالها..

وبعد الزواج بقليل أظهرتْ تغيُّرا أقلقني، أصبحْت عصبية نافدة الصبر، جارحةَ اللفظ، عالية الصوت يستفزها كلُّ ما يصدر عني من لفظ أو سلوك.. وبكيت كطفل وتوسلت أن ترحمني ولكنها أمعنت في إذلالـــي ثـــم طلقتْنـــي.. علمـــت بعد ذلك أنها أجْرَت جراحةَ تجميل وتزوجـــت رجـــلا في الأربعين يملك مالا وثقافة وخضعت له تماما حيـــث كان لا يريد منها شيئا إلا أن تكون زوجة. وتصورت أن هذا الـــرجل نجـــح فـــي أن يشبع لديها ما فشلت أنا فيه.. ويا للعجب لقد طلقت هذا الرجلَ أيضا.. والذي لم أصدقه أنه بكى مثلي حين طردته من حياتها.

٢- مسرح الحياة:

الممــثلون على مسرح الحياة هم المؤلفون والمخرجون ليس عــن علم أو خبرة وإنما بالفطرة.. طبيعتهم تملي عليهم سلوكَهم في الحياة والمفاهيمَ التي يتبنَّونها..

أمـــا الممثلون على خشبة المسرح فهم كالدُّمى لا يملكون إلا ألســنة يحركونها باقتدار وفقا لمفاهيم المؤلف وتصورات المخرج.. والممــثل على خشبة المسرح أكثر صدقا لأنه يعرف أنك تعرف أنه يمثل.. أما الممثلُ على مسرح الحياة فهو يريد أن يخدَعك دائما بأنه لا يمثل بل هو يقول الحق ويسلك بالصدق.

الممــثلان همـــا زوج وقور ميسور وزوجة متوازنةٌ ملتزمة تعدت ثلثي العمر الافتراضي وعاشا معا تحت مظلة المودة والرحمة.. وطــوال تحــركهما على خشبة المسرح حرَصَا على أن يُظهرا من الإخـــلاص مـــا تــنوء بـــه ظهور عصبة من الأزواج والزوجات، متلازمان كلَّ الوقت، متحابان في السر والعلانية تبدو على وجهيهما لافــتراش أمـــارات براءة تكفي لافتراش وجوه ألف طفل.. أصاب الزوجُ نجاحا كبيرا وهو على أعتاب الخريف فانشغل سفرا وتَرْحالا صـــاحبته زوجــتُه المصـــونة ثلثي الوقت أما في الثلث الآخر فكان مضطرا آسفا ومتحسّرا أن يكون بمفرده بحكم طبيعة بعض الأعمال.. شعرت هي بفراغ شغلته بنشاط اجتماعي يضاف إلى ميزان حسناتها وإن كانـــت قد أصابت منه أيضا مكانة مرموقة فتطلّعت إليها عيون

كثـيرة حيث ثَمّةَ رجالٌ تستهويهم جاذبية السيدات المتألقات.. أما هو فقد انضم إلى زُمرة رجال المال حيث تتطلع إليه عيون نساء تستهويهن جيوبُ الرجال المنتفخةُ.

إذا أضــفت إلى ذلك تأثيرَ الخريفِ المقلقِ الذي يُفْقِد الإنسانَ الثقة بالنفس فلك أن تتوقع دون إفصاح ما طرأ على حياتهما.. ورغم ذلك استمرا ببراعة في لعب نفس الدور كزوج وزوجة مخلصَين.

وفي ليلة أراد أن يتسلل من البيت أملا في لقاء يرفع معنوياته فأطعمها.. قرصا منوما على أنه دواء لصداع مفاجئ ألم بها.. وكانت هي في نفس الليلة على موعد تليفوني يستغرق من الوقت ما يتيح لها كــلَّ مــا يمكــن أن يتحقق في لقاء فعلي فأطعمته كوبا من العصير يحتوي على مادة منوّمة، وإمعانا في التمثيل دخلا الفراش معا ونامت هــي على كتفه كالمعتاد وأحاطها هو بذراعه الطويلة.. ولم يدريا إلا وقــد استيقظا في منتصف النهار التالي ولم يَبْدُ على أيٍّ منهما أنه قد فهم شيئا.

والســؤال الآن: هــل كانــا على مسرح الحياة أم على خشبة مسرح حقيقي!!

٣- وجه القمر:

في مطلع حبنا كانت تُصِرُّ على أن أتطلّع للقمر ليلَة اكتماله قائلة انظــر إلــيه تَرَني.. وكان وجهها فعلا كالقمر بل أكثر جمالا وأبهى

نـــورا.. ولكن ساورني قلق متفاقم حتى أصبح كالوسواس.. حقا إن القمر أجمل ما يكون ليلة المنتصف لكنه يأخذ في النقصان كلما توغل الشـــهر فـــي العمـــر واقـــترب من نهايته إلى حد الخذلان التام.فهل يـــتعرض وجه حبيبتي إلى هذا الانقراض فيخبو جماله ويَبْهَتُ نوره؟ وأشـــفقتُ عليها وأشفقت على نفسي إذ كانت تزهو بجمالها وكنت أنا مـــأخوذا مـــبهورا بهـــذا الوجـــه الذي لم يُخْلَق مثلُه في طول الدنيا وعرضـــها، ومـــن قديم الأزل واليوم وغدا ولا أظن سيخلق في مثل جمالها وبعد مليون عام.

ولـــتهدئة وساوسي كنت أنظر إلى القمر ليلةَ أن يكون بدرا فقط أما وجه حبيبتي فلا أشبع منه ولا أرتوي وأظل أنهلُ بعينيَّ وأرتشف بروحي وألامس بقلبي كلما حانت فرصة..

ويا لعجبي أنه رغم تقدم العمر حتى كاد ينتهي أو قبل أن ينتهي بقليل إلا أن وجه حبيبتي ظل كالقمر في قمة اكتماله وتمام استدارته.. وحمـــدت الله أن وساوسي لم تتحقق وأنها حظيت بتكريم خاص من خالقهـــا حـــتى تظـــل رمـــزا للجمال المطلق الذي يفوق جمالَ كل الموجودات طبيعة وأشعارا وألحانا.

وبســـبب مقـــبول وبحجـــة معقولـــة طلبت مني يوما أن تسافر بمفـــردها لـــزيارة بعض أقاربها.. وآلمني الفراق وكدت أُجَن وحشة لوجهها حيث طالت غيبتها.. وأبلغتني هاتفيا بقرب عودتها ووعدتني بمفاجآت سارة.. استقبلتها من حيث ودعتها.. نظرتُ إليها باندهاش

ثم بإنكار أعقبه الاستنكار حيث إن وجهها اختلف وبدت عليه علامات تقـدُّم العمــر بشكل مفاجئ ولم يعد كما كان دائما كالبدر.. ومضينا صــامتين.. وتدهــورت علاقتــنا.. وأخذ كل منا يلعن في سره ذلك الرجل الذي اخترع عملياتِ شدّ الوجه.

٤- مصارحة:

لـيلة أن أعلنوه بتَولّي المنصب الرفيع جدا لم يستطيع أن ينام لأنه شعر بأن الفراش قد انكمش فجأة طولا وعرضا بل شعر بأن حجرة نومــه ضاقت أيضا فاقترح على زوجته أن ينتقلا إلى مسكن جديد أكثرَ براحا وأن يبتاعا سريرا أكثرَ اتساعا.

طمأنــته زوجــته أن الأشياء ما زالت بحجمها وإنما هو الذي تضخم.. أعجبه تفسيرُها حيث يشعر هو الآن وبالفعل أنه عملاق لا يدانيه أحد في طوله وعرضه وفي قوة عضلاته ولَمَعان عقله وطلاقة لسانه وحزم إرادته وعمق خبرته وعبقرية ثنايا مخه، وبالتأكيد أيضا فــي جماله وجاذبيته وسحره. وأفصح لزوجته وهي نصفُ نائمة عن خواطره التي تدور حول نفسه.. فأصدرت صوتاً غريباً يبدو كضحكة مشبعة بالاستخفاف لما يقول، فاجتاحه غضب لم يمنعه من المخاطرة بإفســاد هــذه اللــيلة الذهبية فاندفع قائلاً لها: هل تطمعين فيّ أيتها المــرأة!! هــل تطمعيــن في منصب، أم أنك متحسرة لأن أحداً من عائلتك لم يبلغ ما وصلت إليه أنا!

أعـــادت إصـــدار نفس الصوت الغريب والذي كان محمَّلاً هذه المـــرة بمـــزيج من التقزُّز والاحتقار.. ثم انطلقت منها قذائفُ لفظية كاللهب مثل أي امرأة رقيعة أو هابطة المستوى حين تغضب وتقرر أن تمحو من الوجود ذلك الذي استفزَّها ووقف قُبَالتَها متحدياً.

قالـــت له: أنـــت تعرف كيف وصلتَ إلى هذا المنصب.. أنت منافق كبير.. واضطررتَ للنفاق لأنك تافه.. وكنت أيضاً كاذباً حين صـــورت نفســـك على أنك التقيُّ الصالح الصادق الأمين.. وأنت لا تملك موهبة حقيقية بل أنت مقلد مدَّعٍ.. ولقد اكتشفوا تفاهتك وعرفوا عـــنك عشـــقك للعبودية والمذلة فاختاروك لهذا المنصب.. فهذه هي شـــروط من يمثل المناصب الرفيعة جداً.. وغداً سيكتشفون إمكاناتك الحقيقية في الغش والخداع وقبول المال الحرام وهذا سيتيح لك مزيداً من الترقي إذا كان هناك منصب أرفع من ذلك.

ضـــحك هـــو ضحكة مجلجلة وحاول أن يهدئ من ثورتها ولم يأبَهْ لما قالت لأن هذا الكلام غير حقيقي في تقديره.

ســـكتت قلـــيلاً حتى ظن أنها هدأت وأنها سرعان ما ستصفو.. فـــتجرأ ومد يده مداعباً لعله ينجح في تحريك أحاسيسها البدائية حيث كان يعتقد أن هذه هي الوسيلة الوحيدة والأساسية لإرضاء أيِّ امرأة.. لكـــنها أزاحت يده بعيداً وقالت بهدوء شديد: ولعلك تتوهم أنك رجل حقيقي بينما في الواقع أنت عاجز وتحتاج إلى علاج.

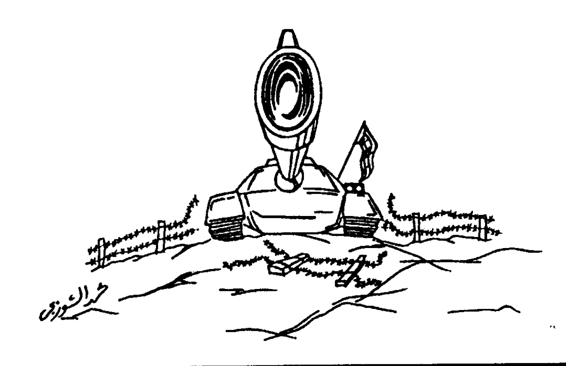
وهنا انكسر قلبه وأخذ في التضاؤل حتى صار كالنملة.



البطولة

البطولة تنحصر في معنى واحد وهو أن تموت من أجل مبدأ.. مـــن أجــل عقيدة.. من أجل إنسان آخر.. من أجل الوطن.. البطولة الحقة هي أن تموت.. البطولة ليست هي الأعمالَ الخارقةَ.. لا توجد درجات من البطولة.. إما أن تموت فتكونَ بطلاً وإما لا تموت فتكون شيئاً آخرَ.

تستطيع أن تدَّعِيَ أنك كبير أو عظيم.. قد يختارك الناس ولياً أو رئيســاً أو قائداً.. قد تكون عبقرياً مبدعاً.. ولكنك أبداً لا تكون بطلاً دون أن تمــوت أو علــى الأقل يكون لديك الاستعداد لأن تموت من أجل الله.. من أجل الحق.. من أجل الوطن.



وأدعياء البطولة كثيرون وصاخبون.. ويرفُلون متباهين متفاخرين.. يراءون وينافقون ويتوددون.. يقولون ولا يفعلون.. يهربون.. يلبسون الخوذات ويحمون صدورهم بثياب من حديد.. لا يريدون الموت.. يبيحون أيَّ شيء وكلَّ شيء من أجل أن يعيشوا.. بل حتى يموتَ الجميع ويعيشوا هم.. الحياة هي الغاية والمراد والمنتهى.. لا يعشقون إلا ذواتهم ولا يجتهدون إلا من أجل أنفسهم.. نَرْجِسِيُّون أنانيون كاذبون.

أما الأبطال فلا يتكلمون إنما يرقبون ويتأملون ويألمون.. لديهم أقصى درجات الإحساس بالغير.. العطاءُ لديهم لذة.. والتفاني سعادة.. والتضحية نشوة.. الآخرون مُقَدَّمون على أنفسهم.. إنهم يحبون الحياة من أجل أن يعيشها الآخرون سعداء هانئين. إنهم حراس الحق والعدل والحرية، إنهم رعاةُ الحب والمودة والرحمة.. إنهم الأمناء على الكرامة والشرف والعزة.. إنهم الجنود الأوفياء لكل ما هو خير ولكل ما فيه الخير للبشرية جمعاء.

وفوق كل ذلك فإن الأبطال على استعداد تام للتضحية بحياتهم من أجل كل هذه المعاني الجليلة.. والتضحية بالحياة معناها القتال حتى الموت أو النصر.. وهي شجاعة منقطعة النظير.. أو هي أقصى درجات الشجاعة هي الإطلاق.. أي لا خوف.. مع أن الخوف غريزة في الإنسان..

ولقد جُعِلَ الخوفُ غريزة ليهَبَ الإنسان دفاعا عن حياته في جزء من اللحظة ودون أن يفكر أو يدبِّر أو يخطط.. إنها غريزةُ حبٍّ

البقاء والاستمرار.. غريزةُ التشبث بالحياة، أما الأبطال فلا توجد ذرةُ خوفٍ عالقة بوجدانهم.. رغم ذلك فهم في غاية الرقة والعذوبة.. غاية فـــي الرومانســـية، والقدرةِ على الحلم، وأعظم ما لديهم من قدرة هو القدرة على الحب، حبٌ كل ما هو خير وجميل وحق.. عدم الخوف لديهـــم لـــيس معناه تبلد الوجدان وإنما هو حب التضحية.. والإقتداء بالـــنفس. والـــتاريخ يحكي لنا عن أبطال كثيرين للنضال.. بعضُهم حقيقـــي وبعضهم غير حقيقي.. أي بعضهم زائف.. ومعظم الأبطال الذيـــن حكـــى عنهم التاريخ يموتون على أسرتِهم وبذلك ينتفي عنهم تعـــريف الـــبطولة.. وكثير من الأبطال لم يحك عنهم التاريخ لأنهم مـــاتوا علـــى أرض المعركة.. سالت دماؤهم حتى الموت، دفنوا في مقابر الشهداء بدون شواهد.. لا يستطيعون أن تسمَّى كل جثة باسمها الذي كان يحمله صاحبها في الحياة.. فهذا ليس مهما.. لا ضرورة أن تعرف جثة مَنْ هذه!! المهم أن صاحب هذه الجثة بطل.. لأنه قتل من أجل الوطن.

وعـــادة ما يكون الموت من أجل الله هو في نفس الوقت من أجل الحـــق ومـــن أجل الوطن. هو موت في مواجهة الكفر بالحق والمبادئ والقـــيم. والوطن هو الأرض التي ولدنا عليها لنعبد الله ولنعمل وننشر فوقهـــا وبين أهلها الحق والرحمة والعدل.. وأن نحمي هذه الأرض من أن يدنسَها ظالمٌ ومعتدٍ وآثمٌ وباغٍ.. الأبطال يقاتلون بشراسة ولا يهابون شـــيئا.. لا يهـــم قوةُ الأعداء.. وإنما يُعدُّون أنفسَهم بقدر ما يستطيعون ولكنهم أبدا لا يتخاذلون ولا يتقهقرون..

وإذا نقـص لديهـم العـتاد أو كان سلاحُ عدوهم أمضى من أسـلحتهم فـإن هؤلاء الأبطالَ يستعينون بأجسادهم ليفجروها وسط أعدائهـم لتطـيح بهم.. الجسد ذاته يصبح هو السلاح.. يلتف البطل بالديناميـت.. فيتمزق أول ما يتمزق جسدُه هو.. ثم تنطلق الحممُ في كـل اتجاه لتخترق أجساد أعدائه وتمزقها.. يالها من طريقة للنضال، هـذه الطـريقة تقول شيئاً مهمًّا: إنه لا يأس، لا تراجع، لا خوف بل الـبطل دائما هو الأقوى لأنه لا يخاف.. ولأنه قرر سلفا أن يموت.. وأن يكون ثمنَ موته عشراتٍ من أعداء الحق والحياة.

إن أيَّ محـارب شجاع وهو ذاهب إلى المعركة يعرف أنه قد يمـوت أو قد يعود.. فإذا مات فهو بطل.. أما من يذهب وهو يعرف أنـه سـيموت ولـن يعود فهو بطل الأبطال.. إنها بطولة لا تعرفها قواميسُ البشرية.. إنها فوق البطولة.. وهو مُختارٌ من الله لكي يؤدي هذه المهمة.. إنه ليس ككل إنسان..

لـيس ككل محارب شجاع.. لقد اتخذ قراره بألا يعودَ لأن هذه هـي الوسـيلة الوحيدة لإرهاب عدوه وإجباره على الرحيل، وترك الأرض الطاهرة، لا طريقَ آخر.. ولذا يكون على أتم الاستعداد وفي منـتهى السـعادة أن يكون جسده هو أول ما يمزقه الديناميت.. ولذا تراه وهو ذاهب إلى مهمته مستبشراً متفائلاً مرحاً ضاحكاً لأنه يعرف تماماً أنه ذاهب للقاء ربه في اللحظة التالية لتفجير جسده.. فكيف إذن يخاف!! لا خوف وأنت ذاهب للقاء الله. ولذا يفرح الأهل بشهيدهم..

يرقصون يزغردون.. يوزعون الحلوى ثم ينامون هانئين بلا دموع.. وكلما كان القلب بكراً كان أكثر شجاعة.. بل أقصى درجات الشجاعة.. يا سبحان الله.. فتاة دون الثامنةَ عشرةَ.. تعرف أنها ستموت بعد قليل.. ربما بعد ساعة أو ساعتين تمسك بورقة وتقرأ: أنا الحية الشهيدة آيات الأخرس".. يا حبيبتي.. أنت تساوين كل الأحياء في الدنيا.. وأنت على رأس كل الشهيدات والشهداء.. ثم تكمل: "أموت فداء لوطني.. حياتي في سبيل الكرامة والشرف.. ستعود الأرض".. نعم يا حبيبتي سيتحقق بإذن الله ما تقولين وتأملين.. لن تذهب حياتُك هباء.. يا بطلةَ الأبطال ليت هناك وسيلة أخرى.. ولكن لا يوجد.. الشعب كله أعزل لا يملك إلا الأجساد اليافعة وبعض الديناميت.. ولكن يملك أيضاً شجاعة القلب وصفاء النفس. والأعداء لا يملكون إلا الحديد والنار.. سينهزمون.. سينهزمون.. تموت آياتُ الأخرسُ اليوم وغداً سيكون هناك ألفُ آيات.. مليونُ شهيد وشهيدة.. بل أكثرُ.. وليس لدينا إلا دليل واحد.. ولكنه دليل قوي يسانده التاريخ.. تسانده الحكمة والمنطق.. هذا الدليل هو أن شعباً أفرز فتاة مثل آيات الأخرس لابد أن ينتصر.



رجل غير شريف

الكوارث هي أحداث مؤلمة لا يقوى الإنسان على تحملها، تقتله أو تسحقه أو تدمّره أو تفتّتهُ وتبعثره أو تنهش عضوًا من أعضائه أو حاســة من حواسه أو تفقده عزيزًا أو مالاً أو سلطاناً أو تفشله وتدينه وتفقده عقله.

بعض هذه الكوارث تجود به الطبيعة وأقصى ما تسببه هو أن تجعــل الإنسان بلا مأوى عارياً ضائعاً جائعاً، فقد ماله وبيته وبعض أحــبائه إلى أن ترقّ بعض القلوب، فتقدم له المساعدة باسم الإنسانية العطوف الرحيمة لتنتشله من أزمته وتخفف من وقع الكارثة.

بعــض هذه الكوارث يصنعها الإنسان لنفسه برعونته وحماقته واندفاعه لأن من لم يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتي شرًا كثيرًا.. والحكمة لابد أن يكون لها أساس أخلاقي وإنساني.. من يفتقدْ الارتكازَ على قاعدة أخلاقــية ومــن يفقــد حسَّه الإنساني يندفعْ كثور أحمقَ خلف شهوة مستعرة لمال أو جنس أو سلطان مشفوعاً بقوة وهمية وغرور زائف ونرجســية مقيــتة. والنتيجة أن تحل به كارثة يفقد فيها كل ما كان يســعى مــن خلفه وتتحطم حياته إما بفقدها أي يموت أو يفقد سمعته وذلك أنكى وأسوأ.

وثمّـــةَ نوع ثالث من الكوارث يتسبب فيه إنسان ليحيق بإنسان آخر أكثرَ غباء أو قلةَ خبرة أو تعمداً.. قد يكون الإنسان نبيلاً وشريفاً ولكـــنه قليلُ الخبرة ومعدوم الحيلة أو محدودُ الذكاء وينبري لما هو فوق طاقته فتحل الكارثة التي قد تصيب إنساناً آخر.. أما التعمد فهو الشر بعينه.. إنسان يتعمد إيذاء إنسان آخر وذلك من أجل تحقيق نفع شخصـــي لـــيس عن حق وإنما عن ظلم وعدوان وبغي أي الارتكاز والمـــنطلق يكون فوق قاعدة لا أخلاقية حيث ينعدم الشرف.. الشرف هـــو القـــيمة الأساسية التي تبرز في مجال وفي نطاق علاقة إنسان بإنســـان آخـــر، الشـــرفُ هـــو منظومة من القيم تحدد سلوك إنسان نحـــو آخر.. والتعاملات الإنسانية بشتى صنوفها إما تعاملات شريفة أو غـــير شريفة وفي العلاقات الشريفة يكون طرفَا العلاقةِ شريفين.. أمـــا فـــي العلاقات غيرالشريفة فيكون أحد الطرفين أو كلاهما غيرَ شريف.

والشـــرف كأساس لأي علاقة إنسانية صحيحة ينطوي أول ما يـــنطوي علـــى احترام حقوق الآخرين من تعامل أمين وقول صادق ونصـــيحة مخلصة ومساعدة حقيقية ولذا فالتعامل الشريف هو تعامل إنساني بالدرجة الأولى يجسد الجانب الجميل في الإنسان.

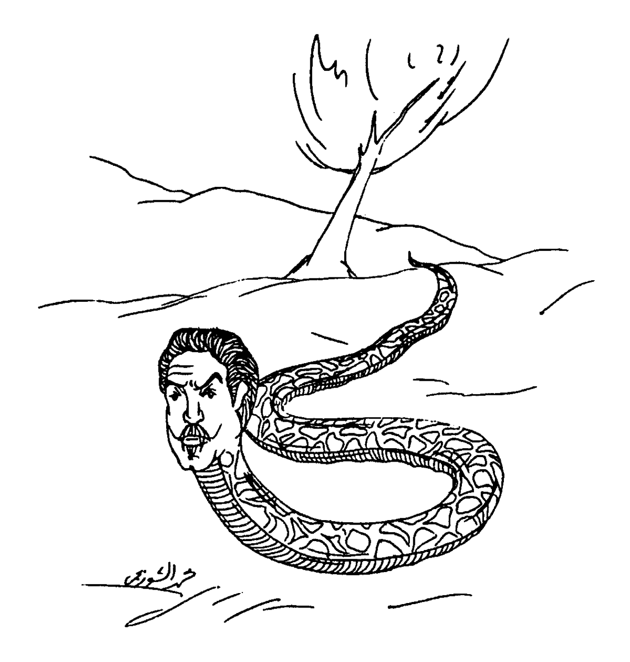
فالشرف هو جمال الخُلق وجمال السريرة.. نقاءُ النفس وصفاء الروح.. روعةُ الوجدان ورجاحةُ الفكر.. وبذلك تعمر الأرض وتثمر وتزدهـــر ويسود السلام، أي أن السلام مرجعه الشرفُ في العلاقات

الإنسانية.. أما الحروب والدمار والخراب والحرائق والدماء والأشلاء وتكسيرُ العظام فأساسها عدم الشرف، إما عدم شرف رجل واحد أو حكومـــة أو دولة بأسرها فمثلما هناك رجل غير شريف هناك أيضاً دولة غير شريفة. وهي تلك الدولة التي لم تقم على أساس أي ليست لهـــا مقومات الدولة.. أي دولةُ زائفة.. دولة قامت على الاغتصاب، مـــثل هـــذه الدولـــة معدومة الشرف.. لأن الشرف كما قلت لابد أن يرتكـــز علـــى قاعدة أخلاقية فكيف إذن تكون دولة شريفة وأفرادها يعلمون علم اليقين أنهم اغتصبوا الأرض التي يعيشون عليها..

ولذا فإن استمرار هذه الدولة لابد أن يقوم على استمرار الظلم واســـتخدام القهر، بقاؤها مرتبط باستمرار امتلاكها لآلة البطش وكل تعاملاتها تكون غير شريفة إنها دولة منزوعةُ الشرف.. ولذا لا تتوقع منها إنصافاً أو عدلاً أو إنسانية..

هـــذه الدولـــة تتشكل من أحط وأسوأ أنواع البشر ويلدون نفس النوعية السيئة عن طريق الوراثة والبيئة المسمّمة ولذا فتوقع السلام مع دولة غير شريفة هو نوع من الحماقة ومن الغباء أيضاً.. وستظل هـــذه الدولة مصدراً لكوارثَ إنسانيةٍ جمّةٍ ونموذجاً للعربدة والتحدي الإجرامـــي، فيا أصحاب النيّاتِ الطيبةِ ابحثوا عن طريق آخر إلا أن تضعوا أيديكم في أيدي قوم غير شرفاء.

ورجـــل واحد غير شريف يمتلك قوة ومالاً أو سلطاناً يستطيع أن يتسبب في كوارث للآخرين يستطيع أن يشعل الديار ناراً وخراباً.



وغـــير الشـــريف يعرف أنه غيرُ أنه في الدركِ الأسفلِ.. وهو يُلْبِسَ الباطلَ بالحق، وقولُه هو الزورُ بعينه، ويقلب الحقائق، دوافعه الأنانــية والنرجسية والغرور والسادية والغيظ والكراهية والحقد ولذا فهو يُحِثُ على الحرب ويشجعها ويغذيها ويَمدها بالعون والدعم قولاً ومالاً وعتاداً.

وهــذا الــرجل غير الشريف قد يصدق نفسه.. أي يصدق أنه علــى حــق وذلــك إذا كان غبياً أما إذا كان ذكياً فإنه يعرف نفسه

ويعـــرف أهدافه ويخطط بوعي ويختار كلماتِه بعناية ويُبَرِّر ببراعة سلوكه وتوجهاته.

ولا يوجــد لــص شـــريف ولذا لا تفاوضَ مع لص ولا أمان للـــص.. مثلما لا أمان لثعبان، أيُّ تفاوض وأي سلام من الممكن أن يقوم بين حمامة وثعبان!! الثعبان يعضُ أي شيء آخر إلا ثعباناً مثلَه.

والـــرجل غير الشريف كالثعبان.. فيأيها الرجل الثعباني يا من عكست الحقائق وألبست الباطل ثوب الحق ولم تَستَحِ من قول الزور ومســـاندةِ الظلم ودعم البغي يا من تعمدت تجاهلَ الشرفاء والضغطَ عليهم أريد أن أسألك سؤالاً: هل أنت لا تعرف أنك غير شريف وبذا تصبح غبياً أم أنك تعرف أنك غير شريف فتصبح شيطاناً.

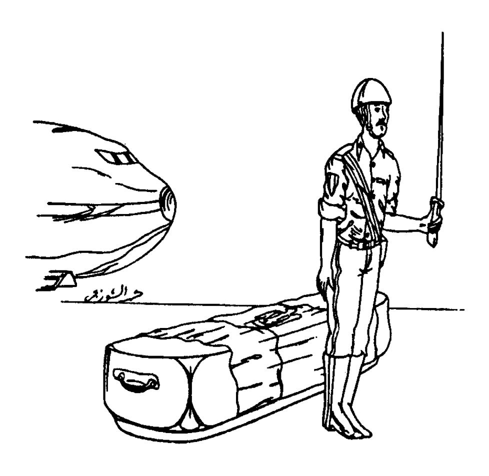


نموت ويحيا الوطن

عدت من عملي وأنا في غاية الإنهاك، ياه، لقد مضت ساعتان بعد منتصف الليل، انتهى يومٌ وبدأ يوم جديد، نقص العمرُ يوماً، وإذا كـــان العمر ينقص بمرور الأيام، فلماذا نستعجل الأيام، أكلتُ طعاماً خفــيفاً بلا شهية، آخرُ الأنباءِ لا يحمل شيئاً جديداً رغم وقوع أحداثٍ جديـــدة، ولكنها ليست جديدة لأنها تكرار لما حدث أمسِ وقبل أمسِ، البـــيوت تُهـــدَمُ فـــوق رؤوس أصحابها، ينزف الجريح في عرض الطريق حتى النفسِ الأخير، أبخرَةُ الدماء تتصاعد هي والأرواح في كثافة غير مسبوقة، نمت وصورةٌ لجثة طفل ما زالت عالقة بمخيلتي. تقطع نومي عدة مرات فقمت في الصباح وقد بلغ بي التعب مداه.

يـــوم جديد ثقيل، تهيأتُ للخروج، لا توجد شهية البتَّة للطعام، الصحف تحمل أخباراً ليست دقيقة، لماذا التهوين!! أين نقف بالضبط؟ وصلت إلى عملي بحماس مفقود، تنامت إلى سمعي أصواتُ الشباب وهم يهتفون، ينادون بالجهاد، ماذا بإمكانهم أن يفعلوا!! الحنجرةُ هي أخيـــبُ وسيلة للنضال، يا للعار، لماذا كلُّ هذا الوهَن!! كيف صرنا حفاة عراة نتسوَّل الطعام!! لم أشأ أن أعود للبيت، تجولت بلا هدف،

قادتنـــي قدماي إلى حيث يلتقي أصدقاءُ قُدَامَي، سخاء الترحيب أزاح بعض الثقل من فوق صدري، يضحكون ويمرحون ويلعبون وقليلاً ما يســكتون حيــن تجــف الأفكار، ثم يعاودون المزاح، كل شيء قابلٌ للســخرية المعلــنة وغــيرِ المعلنة، يا لهم من قوم غاية في العجب، يرقــبون ساكتين، ويهيّأ لك أنهم لا يفهمون أو أنهم موافقون ولكنهم يفصحون عن مكنونهم بنكاتٍ حارقة كالعدسة التي تجمع شمل أشعة الشــمس وتكثّفها في بؤرة واحدة تُحرق ما تقع عليه، هكذا الناس في بــلادي واحذرْهــم حين يثورون كجماعة، أي حين يكون لهم عقل جمعــي واحــد، إنهم ينقلبون حينئذ إلى الضد، وحين يسأمون اللعب يتســلون بالنميمة، وبتطوير الشائعات ويبدون وكأنهم مطلعون على بواطن الأمور، ياه.



كــل هذه الحقائق يدرون عنها ولكنهم ساكتون، وكأن الأمرَ لا يَعْنيهم، ولكنهم عند الضرورة يصبحون جارحين كالصقور، هكذا قال عنهم الشاعر، هكذا الناس في بلادي.

وفي رحلة العودة لمحت شيئاً مثيراً، رجلين ينْقضَّان على امرأة ويخطَفَــان حقيبتها، ثم يطيران بسرعة البرق، تصرخ المرأة، ضاع المــال وضـــاعت الأوراق المهمـــة، يقترب منها المارة مواسين ثم ينصرفون، لا أحد يفعل شيئاً، ولماذا التورُّط!! تمتد يدِي للمرأة بورقة مالية بدافع من الشفقة، ولكنها تصرخ في وجهي، أريد حقي، لماذا لا تطاردون اللصين؟ لماذا يُفْلِتُ اللصوص دائماً.

عــدت إلـــى عملـــي وأنـــا في غاية الخجل والشعور بالعجز، أحسســـت بمعدتي خاويةً ولكنني لا أشتهي طعاماً ولا أرغب، تموت الرغــبات فـــي الأزمـــات، تنعدم الشهوة وتتعطل الشهية، وتنسحب الطاقـــة، حاولت أن أركز في عملي، فلم أستطع، ياه، لقد انتهيت، أنا الآن نصف نائم أو نصف ميت، فكيف أصحو وكيف أبعث في نفسي الحــياة، مـــا الحياة إلا رغبة وعمل، وأنا الآن معطل من الرغبات وعاجـــز عـــن العمـــل، هل هذا هو الاكتئاب، وعدت إلى بيتي بعد منتصـــف الليل، طالعت على الشاشة فتاة صغيرة وهي تقرأ وصيتها قبل أن تمضي بإرادتها لتموت، كانت نَضِرَةً مبتسمة متفائلة متحمسة إذن هي ليست مكتئبة، كيف لا يكتئب إنسان وهو ذاهب إلى الموت؟ وكيف أكتئب أنا بينما حياتي مستمرة؟ تبًّا لكِ أيتُها الكتبُ التي تحمل لنا نظريات ثبت خطؤها على أرض الواقع.

ونمتُ وصورة الفتاة الشهيدة عالقة بصدري، وفي صباح اليوم التالي قمت أكثر تفاؤلاً والأصح أقل حزناً وأصح الأصح أقل خزياً، لقد توحّدتُ مع الفتاة الشهيدة، أنا الآن أستمد تفاؤلي منها، أستمد قوتي منها، أستمد فخاري منها.

وقبل أن أذهب إلى عملي مررت بصديق مريض تجاوز الثمانين، وكان على فراش الموت، قالها لي بوضوح لا أريد أن أموت، لم أشبع بعدُ من الحياة، سأنتصر على المرض لأني أحب الحياة، أحب الطعام والنساء وليالي الأنس، أرجوك أفعل شيئاً من أجل أن أبقى، خرجت من عند صديقي وأنا في غاية العجب، يا سبحان الله، فتاة في عمر الزهور تذهب إلى الموت طوعاً ورجل كالحطب الجاف بلا ذرّةِ ماء يتشبث بالحياة، وتأملت قليلاً وعدت لأقول ولماذا العجب.

فكلاهما أي الفتاة الصغيرة والعجوز الفاني عاشقان للحياة، كلاهما يتسببان في استمرار الحياة، لولاهما لما رَويت زرعة ولا نبتت شجرة، الفتاة الصغيرة تموت من أجل أن تستمر الحياة والعجوز الفاني يعيش من أجل أن تستمر الحياة، ولذا يتواصل الموت والحياة، أو تذوب الحياة في الموت ويذوب الموت في الحياة فيصيران شيئاً واحداً، نموت لنحيا ونحيا لنموت، الحياة الموت والموت الحياة، تواصل لا ينقطع ولا يتجزأ.

كلاهما الفتاة والعجوز يبعثان على الأمل، الفتاة تقول ما أرخص الحياة من أجل الوطن، والعجوز يقول ما أغلى الحياة على

أرض الوطـــن، والوطن لابد أن يكون له علَم يرمز إليه، وهذا العلَم يــرفعه واحــد مـــن أبناء هذا الوطن على أرض الوطن بينما يردد الجميع يحيا الوطن.

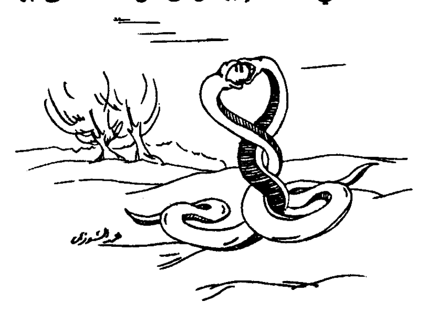
أي لا حياة إلا بحياة الوطن، وأحياناً نردد نموت ويحيا الوطن، أي إنـــنا نهب حياتنا للوطن ليظل حياً، والوطن الحي هو الذي يظل ملكـــاً لأصحابه، وأصحابه هم الذين يولدون على أرضه ويستنشقون هواءه، ويأكلون من حدائقه ثم يُدفنون تحت أرضه جنباً إلى جنب مع أجــداد يحملون نفس الجينات منذ آلاف السنين، إن أصحاب الوطن يســـتمدون أسماءهم وصفاتهم وعزتهم وكرامتهم من الوطن، الوطن يهب الحياة لأبنائه والأبناء الصالحون هم الذين لديهم الاستعداد وقت الضرورة أن يموتوا من أجل أن يحيا الوطن.



أن تموت سعيداً

وصـــل بهمـــا الإنهـــاك مـــداه.. لم يكن في مقدور أيٍّ منهما الاســـتقلال بنفســـه حيـــن قضاءِ الحاجات الحياتية البسيطة.. ضعفٌ مضـــافٌ إلى ضعف يتيح قليلاً من الدفع لأداء مهمة يستطيعها طفل بمفـــرده.. رغـــم شبابه فقد انهار تماماً وأصابه مرض غيرُ معروف وشـــيخوخةٌ مبكرة.. ورغم شبابها فقد صارت امرأة عجوزاً تهدم ما في داخلها وخارجها فصارت حطاماً.

يـــده وحدها كانت غيرَ قادرة على رفع الطعام إلى فمه.. فكان لابـــد من يدها لتعينه على حمل اللقمة.. وساقاها وحدهما كانتا غيرَ قادرتيـــن علـــى حملها من مكان إلى مكان آخر يبعد قدر خطوتين.. فكان لابد من كتفه لكي تستندَ إليها ومن ذراعه لتتعلق بها.



ومــن عجــب أنـــه بالرغم من أن كلاً منهما غيرُ قادر على الحــركة منفرداً إلا أنه بمساعدة الآخر كان يقدر.. ولكن هذا الآخر كان في مثل ضعفه فكيف يعين ضعيف ضعيفا!! فضعف مضاف إلى ضعف يساوي عجزًا.. إذن العون أو المدد الذي كان يقدمه كل منهما للآخــر كــان عونـــاً نفسياً.. فاليد التي تسند يداً تقول لها أنا معك.. والكــتف تحمل ذراعاً تقول لها إني متكَؤُك.. وفي هذه الحالة يكون الضعف مضافاً إلى ضعف يساوي قوة نفسية.. العون نفسي.. والمدد نفسي.. مدد يا رفيقي أو مدد يا حبيبي.

ولذلك مضت بهما الحياة بدون معاناة نفسية بالرغم من الوهَن الجســدي.. بل ربما نستطيع أن نتجاوز ونقول إن ثمَّةَ سعادةً كانت تشــملُهما بيــنما يعين أحدهما الآخر.. بل ربما نتجاوز أكثر ونقول إنهما كانا في أحيان كثيرة ينسَيان ضعفهما الجسدي ويشعران بحيوية تســتغرب فــي ظل انحطاط شديد للقوى وتدهورٍ سريع ينبئ بقرب النهاية.

كــان إذا أتــى المساء يحمل كلٌ منهما الآخر حيث كانت هي تتكئ على كتفه بينما هو يستند إلى وسطها.. ثم يلقيان بنفسيهما على الفراش وقد تقطَّعَت أنفاسهما وحين تهدأ الأنفاس يرفع ذراعه مستندًا إلى يدها ليحيط بعنقها فتغمره نشوة وتغمرها نشوةٌ أبعدُ ما تكون عن نشــوة الجســد حين يلتقي زوجان ولكنها نشوة تُدْرَك في مكان آخرَ كالصبر مثلاً وتكاد تُشابِه تماماً التقاءَ جسدين بالكامل.. أي أنه نشوة الــنفس فــي أوجهــا تجمع في طياتها كلَّ صنوف النشوة فلا يكون

مُسْتَغْرَباً حينئذ أن يشعر الإنسان بنشوة جنسية في رأسه أو في ذراعه أو في عنقه أو في قفصه الصدري.

وفي الصباح الباكر يستيقظان دون أن يشعرا أنهما قد ناما من شدة الألم.. ويحرصان على الصلاة وهما مازالا في الفراش.. فرض الصلاة لا يسقُطُ إلا في حالة الغيبوبة أو الموت.. كانا يصليان صلاة الجماعة.. يؤمها هو وتتبعه هي.. وحين الدعاء كان كل منهما يتمتم في سره ويحرص على ألا يسمَعه الآخر.

ترى ماذا كان دعاء كل منهما؟ ولماذا كان كلٌ منهما يُخفي دعاءه عن الآخر؟

هل كانا يدعوان الله أن يشفيهما؟ نعم بالقطع فهذا أمر منطقي.. هل كانا يدعوان الله أن يَمُد في أعمارهما؟ نعم.. فكل إنسان يكره الموت.. وكل إنسان يود الخلود.. الذي يطلب الموت فقط هو المكتئب أما هما فعلى ما يبدو أنهما سعيدان بالرغم من مرضهما غير المعروف والذي كان على وشك أن يُودِيَ بحياتهما.. نعم كانا سعيدين باقترابهما من بعض، باستنادها عليه واعتماده عليها.. سعادةَ أنهما معاً.

الذي لا يعرفه هو أنها كانت تدعو الله أن يغفر لها.. والذي لا تعرفه هي أنه كان يدعو الله أن يغفر له. كانا يطلبان الغفران لأن كلاً منهما اجتهد في قتل الآخر.. نعم القتل بمعنى القتل.. القتل بوضع السم في الطعام بجُرْعات صغيرة حتى لا يكون الموت مفاجئاً وحتى يبدو طبيعياً..

ومـــع تـــزايد جُـــرْعات السم بدأ الجسد في التهاوي وظهرت أعـــراض غريـــبة غيرُ معروفٍ سببُها لدى الأطباء لأن أحداً لم يكن يتوقع حكاية السم.

ما هذه المصادفة الغريبة التي دفعت كلاً منهما إلى قتل الآخر في نفس الوقت؟

الحكاية كالتالي:

أحبت رجلاً غيرَ زوجها.. أرادت الطلاق لتتزوج حبيبها ولكن الـــزوج رفـــض.. نصـــحها عشيقُها بالتخلص من زوجها وأتى لها بالســـم.. وأظهرت عدولها عن فكرة الطلاق حتى لا يشك في أمرها وانتظرت ساعة وفاتِه بفارغ الصبر.

أما هو فاكتشفت خيانتها له مع الرجل الآخر، فكتم سره وأسرَّه في نفسه، ولم يُبِنْ لها أو لأحد آخر معرفتَه بهذا الأمر الجَلَل.. وقرر الانتقام.. لابد من أن يقتلها.. وأراد أن يبدو موتها موتاً طبيعياً.. ففكر فـــي ذلـــك السم الذي يُعْطَى بجُرْعات تدريجية ويحدث أثره بعد أن يصيب الجسد بالضعف الشديد حتى الموت.

ونجحـــت خطـــة كـــل مـــنهما.. ولكن فوجئ كل منهما بحالة الضعف التي أصيب بها فظنت هي أن الله يعاقبها بهذا المرض فكفَّتْ عن وضع السم لزوجها.. وظن هو أن الله يعاقبه بهذا المرض فكف عن وضع السم لزوجته.. ولكنهما كانا قد وصلا إلى حالة شديدة من الضـــعف.. ولـــم يجد أيٌّ منهما أحداً يعينه على الحياة.. فاضطُر أن

يعتمد كل منهما على الآخر.. وتقبلت هي بصدر رحب أن تساعده.. وتقبل هو بسرور أن يساندها.

وصفت نفس كل منهما ناحية الآخر.. أكبرت إخلاصَه لها في وقـت شـدتها.. وأكبر إخلاصها له في وقت شدته ثم ماتا دون أن يدري كل منهما أنه كان السببَ في موت الآخر.. ولكنهما ماتا وهما سعيدان.



امرأة في المرآة

ليس تجاوزاً أن يُقال إن التاريخ يعيد نفسه.. فالقصة هي نفس القصة، وإن اختلف الممثلون.. وكأنها فيلم تُعَاد مشاهدته مرة أخرى.. والغريب أنه أحياناً يتشابه الممثلون.. أو كما تقول الرواية: وكأني أقف أمام المرآة فأرى من داخلها ابنتي.. وأثق أنه إذا وقفت ابنتي أمام المرآة فسوف أطل عليها من داخلها.. ولذا لا يحق للآباء لومُ الأبناء.

واكتشفت الأم أن ابنتها المتزوجةَ على علاقة برجل آخر غيرِ زوجها.. فسقط قلبها إلى ما بين قدميها.. وكان هذا هو رد الفعل الأول.

أما رد الفعل الثاني فكان قراراً من الأم بمواجهة الابنة لمنعها من التمادي.

فهذا حرام.. أو لأن هذا سيجر عليها متاعبَ تهدد استقرار بيتها.. أو لأن هذا عار.. أو.. أو.. أو.. عشرات الأسباب أعدّتها الأم كل واحد منها يكفي مبرراً لنهرِ الابنةِ وحثها على الكف عن العبث وإنهاء العلاقة الآثمة.

ولـــم تكـــن الأم تتصور أن الأمر يحتاج منها إلى شجاعة لتتم المواجهـــة خاصـــة أن الأدلة الدامغة تحت يديها وأهمها خطاب من العشيق يعتذر لها فيه عن تماديه واندفاعه، حيث لم يستطيع أن يتحكم في مشاعره النارية وأجبرها باسم الحب على الوصول إلى آخر نقطة فـــي علاقـــة الرجل بالمرأة.. ورغم خضوعها وقبولها ثم مشاركتها الإيجابـــية إلا أنها شعرت بالندم الشديد وحزنت من قلبها حيث كانت تتمنى أن يظل هذا الحب نقياً عفيفاً.

توجَّـــع قلب الأم للخطاب وخبأته في صدرها استعداداً للحظة المواجهة والإنكار المتوقع.. ولكن شعوراً يقينياً داهم الأم مؤكداً أنها لـــن تقوى على المواجهة، وأنها ستُحْجِم في اللحظة الأخيرة.. وعبثاً حاولـــت أن تكتشف سر جبنها المرتقب فلم تفلح.. إلا أن ذكرياتٍ ما مـــبهمةً غيرَ مرئية وكأنما تتخفى وراء ضباب عال في السماء بدأت تحـــوم حول رأسها.. لقد كانت ماكينة عرض فيلم الذكريات معطلة عـــن عمد بفعل يد خفية برزت من اللاشعور.. فالفيلم مفزع ومخيف ويهـــدد أمنها النفسي ورؤيتها لذاتها حيث إنها كانت قد نسيت تماماً تلـــك الحقـــبة المخـــزية.. فشلت تماماً في استخراج الفيلم من جعبة الذكريات، وعرضِه على شاشة ضميرها ووعيها.

إلا أن الفشـــل فـــي عرض الفيلم لم يرحمها من مشاعر القلق المدمر للأعصاب، فبدت مضطربة حائرة تروح وتجيء.. وفي أثناء عبورها أمام المرآة لمحت جانباً من وجهها يُبْرِز ملْمَحاً معيناً خاصاً

بهـــا تختلف به عن باقي النساء.. ولكن خيل لها أنها ترى ابنتها في المـــرآة.. فـــنظرت حولهـــا فلـــم تجد أحداً.. إذن المرآة قد عكست صـــورتها هي ولم تعكس صورة ابنتها.. فعادت هذه المرأة تنظر إلى المرآة عن تعمد.. وهالها أن تجد ابنتها بكامل هيأتها تطل عليها من داخل المرآة وتنظر إليها نظراتٍ ذاتَ معنى.. وابتعدت خائفة وظنت بعقلها الظنون ثم مسحت على عينيها خشية إصابتها بمرض.

ومضـــت إلى حيث ابنتُها.. ولكن لسانها توقف.. فأناب عينيها بالحديث.. وتلقت الابنة نظرات أمها.. وكانت نظراتٍ كاملةَ المعنى بقـــدر فصـــاحة العينين.. وأرادت الابنة أن تنطق برد مفحِم.. ولكن لســـانها عجز عن الحركة فأنابت عينيها بالمهمة ورمقت الأم بنظرة ترد على نظرتها.. وتلقت الأم الرسالة ونزلت على رأسها كصاعقة فتّتَـــتْ العظام، ونفذت خلال المخ حيث موقع الذكريات، ونَشبَت في محـــتوياته وأخرجت الفيلم وعرضته من خلال شاشة عينيها.. رأت الأم نفســـها حيـــن كانـــت في الثلاثين من عمرها وكانت الابنة في العاشـــرة.. ثـــم جاءت اللقطة الثانية في الفيلم والابنة تشاهد أمها في أحضـــان رجل غيرِ أبيها.. ثم جاءت اللقطة الثالثة حيث أصيبت ابنة العاشـــرة بفقـــدان فـــي الذاكرة وفقدان في النطق.. ثم جاءت اللقطة الرابعة حيث شُفِيَت الابنة ونسيت كلَّ شيء مما حدث في أول الفيلم.

انتهى عرض الفيلم.. ولف الصمت صالة العرض.. وأضيئت الأنوار.. وتلاقت العيون مرة أخرى.

قالــت الابنة بصمت مؤثر: حقاً لقد أحببتُ رجلاً غير زوجي ولكني لم أرغب في علاقة كاملة.. فردت الأم بصمت فيه استرحام: صــدقيني يـا ابنتي وأنا أيضاً لم أسع بنفسي إلى علاقة كاملة.. لقد فرضها علي باسم الحب.

انتهزت الابنة الفرصة لعتاب أمها وتواصل صمتها: ولكن أبي كــان رجــلاً طيباً فلماذا خنته.. انتهزت الأم الفرصة لتطهّر نفسها وتعلــن مــبرراتها التــي طمرتها عشرين عاماً: كان أبوك طيباً في الظاهر.. كان طيباً مع كل الناس إلا أنا.. لم يمنحني حباً أو تقديراً أو احتراماً.. لقد جوّعني عاطفياً.

أطرقت الابنة ثم رفعت عينيها صوب أمها مرة أخرى بنظرات أقــلَ فــي العتاب وأكثرَ في التسامح، وقالت بصمت فيه رجاء وأنا أيضاً يا أمي حرمني زوجني من حنانه واحترامه.. أهانني.. عذبني.. حقرنـــي.. فأحببــت.. ولــم أسع إطلاقاً إلى علاقة كاملة فأنا أكره الجــنس.. أكــرهه مــنذ أن رأيتك مع الرجل الآخر.. أنا فقط أحب الحــب.. أحــب أن يحترمني رجل.. أحب أن يقدرني وأن يحترمني رجــل. ولم تعد هناك أي إمكانية في استمرار الحوار الصامت حيث امتلأت العيون التي كانت تتحدث بالدموع التي حجبت النطق.

ورغــم اســتحالة الرؤية فإن أياً منهما لم تضل الطريق نحو الأخرى وراحا في عناق كان هو الوسيلة الوحيدة لتطهير الجسد.

الحياة والموت

ابـــتلعه المـــيدان كمـــن سقط في فم أسد. لم يدْرِ في أي اتجاه يمضـــي فاستند إلى حائط لمبنى ضخم فخم فبدا وكأنه يتسول.. ظل يـــتأمل حـــركة الميدان دون أن يعِيَ أي معنى رغم أنه كان يحرك رأسه وعينيه متابعاً.. كان كالطفل الذي يستقبل المؤثرات المادية من حوله ويستجيب لها بفعل لا إرادي دون أن يفهم.. أما عن إدراكه هو لذاته فإنه لم يكن يختلف عن أي طفل نزل لتوه من رحم أمه.. مجرد كائن مادي له روح وليس له عقل.

يســـتجيب وفقاً للمؤثرات الحسية حيث يبكي حينما يتألم جسدياً فقط.. ولا أحد حتى هذه اللحظة يستطيع أن يدّعي أنه يدرك أو يسبُرَ مشـــاعر طفـــل وليد.. أي الوصول إلى عالمه الداخلي.. وهل كان يـــدرك وهـــو مازال جنيناً في رحم أمه؟! وهل أدرك اللحظة الأولى التـــي تكوَّن فيها حين ارتعش أبوه وهو منغرس في بطن أمه وسقط مـــنه حـــيوان منوي فصيح التقى ببويضة مستسلمة من أمه فتكونت الـــنطفة ثم العلقة وقد أحاطت بها أغشية ثلاثة.. ماذا كان يدرك وهو مـــازال بعـــدُ نطفـــة أو علقة أو حتى بعد أن دب النبض في العلقة وتكونـــت عظاماً اكتست باللحم.. من ذا الكائن الذي يسبح في الظلام

يأكل ويُخرِج ويتنفس ويتحرك وينام.. ماذا كان يدرك من أمر نفسه ومــن أمر الرحم الذي يعيش داخله إلى حين ومن أمر مستقبله.. هل كـــان يدرك الزمن فتكون له ذاكرة عن الماضي واستشعار الحاضر واستشراف للمستقبل؟ وكيف نطلق عليه كائناً حياً وهو لا يدرك ذاته ولا يـــدرك الزمن؟ إدراك الزمن دليل وعي ودليل حياة.. بل لابد أن نتمادى أبعدَ من ذلك ونسألَ عن حال هذا المخلوق قبلَ أن يتخلق أي قبلَ أن يحدث ذلك اللقاء الحميمي بين حيوان أبيه وبويضة أمه.. حين كـــان مشروعَ إنسان.. حين كان فكرة.. حين كان مسجَّلاً مجيئُه قبل أن يوجـــد.. هـــل كان يعرف أنه سيجيء!! هل كان له وجود بشكل آخر لا نعرفه؟! أم لو نعرف ما كان قبلُ وما سيجيء بعدُ. ونعود إلى المتَّكـــئ علـــى الحائط وفي وسط الميدان الهادر.. صخب وإسراع واصـــطدام وشجار وبيع وشراء واستهتار وإفساد وجِد واهتمام.. كل شيء.. كل شيء.. وهو لا يعي أيَّ شيء، مجردُ متابعة صماء بعينيه ورأسه دون أدنى تعبير على الوجه.. ماذا جرى له؟ أهو مصدوم أم مصروع؟

وعبرت به سيدة عجوز يدفعونها على كرسي متحرك.. ولأول مـــرة لاح علـــى وجهه اهتمام.. وظل يتابعها إلى أن ذابت في وسط الزحام.. ولاحت من أطراف عينيه تجمعاتٌ دمعيةٌ تكفي فقط لفرش عينـــيه بطبقة رقيقة لامعة تشي بقرب انهيارٍ من بعد طول ذهول من هول صدمةٍ أوقفت الإحساس.

كانـــت أمُّـــه قد ماتت لتوها.. ودعها وانفلت من بين المشيعين لـــيخلو إلى ذكرياته معها وعنها.. وحاول أن يستدرج الذاكرة إلى ما قـــبل الثالـــثة مـــن عمره ولكن استعصى عليه الأمر.. وظل يروح ويجـــيء كأرْجوحة أو كبندول بين أول صورة لها في ذاكرته وبين اللحظات الأخيرة السابقةِ على موتها.. ليس الموت بشيء مفزع لأنه كـــان متوقعاً.. وترقُّبُ الموتِ يُفْقده نصفَ هوله.. وإنما المفزع هو الحالة التي يكون عليها الإنسان قبل الموت حيث كما كان طفلاً وبلا وعي.. يصرخ بلا سبب.. يستعصي فتحُ فمِه لإطعامه أو إرضاعه.. يبول بلا إرادة.. الرحمة يا رب.. أمي في الثمانين وتبدو كطفلة في عامها الأول.. "ومن نُعَمِّرْه نُنَكِّسْهُ في الخَلْقِ أفلا يعقلون".. إني أعقل يـــا ربي.. ولكن ارحم أمِّي.. إنها لم تعدْ تعرفني الآن.. ربما تنادي اســـمي بـــلا وعي منها. تنظر إلى وجهي وكأنها لا تراني.. يتحرك جســـدها بـــلا هدف رغم عجزِها الكامل.. تئنُّ كقطة جائعة وما هي بجائعـــة.. أقف حائراً لا أعرف ما يؤلمها.. أيعود الإنسان حيث كان طفلاً.. ثم يبتلعُه القبر كأنه رحمُ أمٍّ؟. يا لصعوبةِ المقارنة والمقابلة.. الرحم كالقبر. الرحم واهب الحياة والقبر مبتلعُ الحياة.. وجه التشابه في الاحتواء.. احتواء الإنسان.. إنسان ضعيف.. إنسان يتشكل دون أن يخـــتار.. وإنسان مات دون أن يختار.. وكلاهما بلا وعي.. بلا فهم.. بلا ارتباط بالواقع.. استقبالٌ ووداع.. لا شيء يدوم.. وما بين الاســـتقبال والـــوداع ينـــتقل الإنســـان من الضعف إلى القوة ثم إلى الضـــعف ثم إلى لا شيء.. من اللاشيء إلى اللا شيء.. وربما كان

الإنســـان شـــيئاً قـــبل اللاشيء.. ولكنه حتماً سيصير إلى شيء بعد اللاشيء.

وبيـــنما هـــو مستند إلى الحائط في الميدان الفسيح كفُوَّهَةِ قبر جماعي شاهد طفلاً يسير بجوار أمه وقد تشابكت أصابعهما.. وفجأة انفلـــت الطفل وفي ثانية قفز إلى أسفلِ الرصيف في عُرْضِ الطريق بينما سيارة مسرعة كانت على مسافة ثانيتين منه.. وفي نصف ثانية ثاب الرجل اللاواعي إلى وعيه تماماً وفي نصف ثانية أخرى وربما أقـــلُ طـــار في الهواء فوق رؤوس الناس وفي نصف الثانية الثالث انـــتزع الطفـــل من أمام السيارة المجنونة وطار عائداً إلى الرصيف فوقع على الأرض وكان مازال محتضناً الطفل.

تعالـــت صرخاتٌ من رأوا المشهد الخاطف وكأنهم في حُلْم.. وســـمع من يقول لقد كُتِبَ للطفل عمر جديد.. وعجب من العبارة.. ولمـــاذا يقـــدر أن يموت طفل السابعة؟ ثم لماذا لا يقدر في الثانيتين الأخيرتين؟

رأي الدموع في عين الأم التي لم تَنْبس. ابتسم لها فابتسمت.. وتشابكت أصابعها مع أصابع طفلها ومضيا إلى حال سبيلهما.. بينما مشـــى هـــو في الاتجاه العكسي ولسانُه يردد في صمت: سبحان الله واهبِ الحياة والموت.

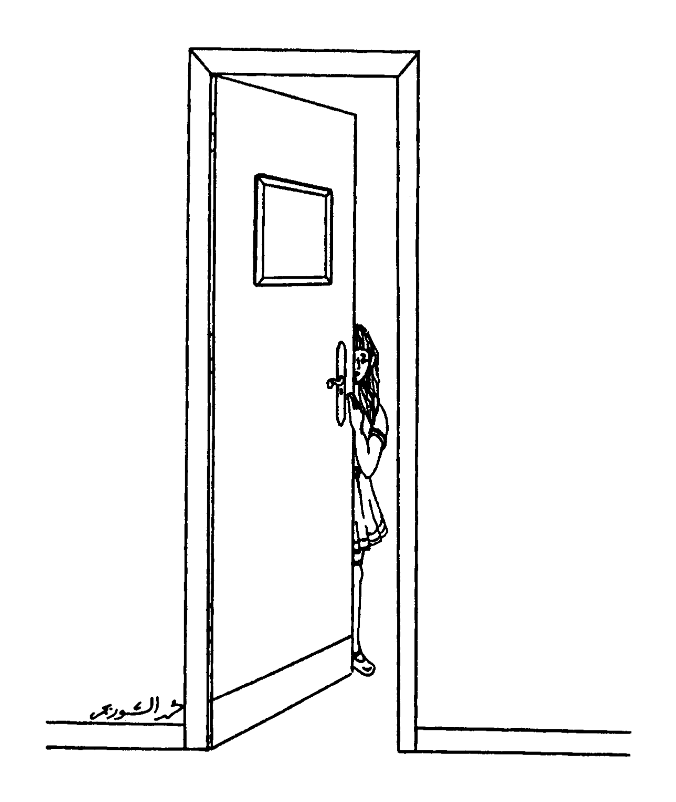
عالم مضطرب

ينضج العقل إذا أدرك أعماق الخير وأعماق الشر.. ولذا يعجز عقـل الطفـل كثيرا عن فهم ما يحدث وكيف يصفه وأين يضعه مع الخـير أم مع الشر؟ ولكن حتى وإن كان لا يفهم معنى الشر ومعنى الخـير فـإن التصـنيف يكون على منحنى الجميل والقبيح، المقبول والمرفوض، الصح والغلط شيء ما يجعل الطفل يُقَوِّم الحَدَثَ إما سلبا أو إيجابيا...

كانت في السابعة جسمها يتناسب مع عمرها لم تكن فائرةً قبل الأوان ولم تكن فائقة الجمال، طفلة عادية لا تَلْفِتَ الاهتمام تلتفت إليها فقط إذا طالعتك بعينها فتشعر بأنهما عينان تقولان شيئا وليس أخطر مـن العينين في وجه أي إنسان، العينان تكونان أبلغ من اللسان في أحيان كثيرة وهما أصدق بالطبع، العيون لا تكذب بينما اللسان يتلوى في أغلب حركاته بعكس الحقيقة.

وتـتوالى علـى رأس الطفل صور عديدة من عالمه الخارجي بعضها لا يفهمها والبعض الآخر لا يستعصى على الفهم حين يكون مباشـرًا وواضـحًا حين ينطبق الحدث نفسه بمضمونه ولكنَّ هناك صـورا غامضـة صامتة صورا لأحداث غيرِ مسبوقة في ذكريات

الطفل وبعض هذه الصور تثير خوفا لدى الطفل رغم أنها لا تهدده، يشــعر الطفل دون أن يفهم أن شيئا قبيحا يحدث شيئا مرفوضا شيئا غلطا ويحاول الطفل أن ينسى هذه الصورة البشعة ولكنه لا يستطيع تظل تطارده كالوَسْواس.



ثـم تختفي زمانا مع كثرة الصور والأحداث ولكنها لا تنمحي أبـدا لـتظهر في الوقت المناسب. وقتها يكون الطفل قد كبر ونضج وفهـم ووعي حينئذ يضع لتلك الصورة الغامضة عنوانا وقد يحاول الـتخلص مـنها لأنها تؤرقه أو تفزعه ولكنه لا يستطيع أبدا. جميع الصـور تنطـبع في ذاكرة الأطفال حتى إن كانت غير مفهومة في الـبداية تنطبع بشدة لأنها أثارت وقت التعرض لها أحاسيسَ مفزعة مخـيفة ثم يفهم معناها حين يكبر ثم تسبب له ألما يفشل في التخلص منه تظل حتى تُدفَن معه في القبر.

أوت الطفلـة إلى فراشها بضغط من أمها رغم رغبتها في أن تظل متيقظة، شيء ما في إصرار الأم جعل الطفلة تشعر بعدم راحة ثـم سبح البيت في الظلام ولسبب ما شعرت الطفلة بالخوف وكأنها تترقب حدثا شديد الخطورة على وشك الوقوع، صمتٌ وظلام وخوف، واستبد الذعر بالقناة نهضت من فراشها حَرصت على ألا تحدث صوتا حتى لا ينتبه أحدٌ باستيقاظها اتجهت إلى غرفة أمها وكان أبوها غائبا حاولت أن تفتح الباب فاستعصى عليها لإحكام إغلاقه سمعت صوت همهمـاتٍ كـان من بينها صوتُ رجل وضحكات امرأة لم تفهم شيئا قبَعـت تتسمَّعُ وترتقب فتح الباب وخرج رجل من الغرفة غيرُ أبيها قبلـتْه الأم بشـدة ومضى الرجل. عادت الطفلة إلى فراشها دون أن يلحَظَها أحد شعرت بحزن شديد ثم نامت وصحت وهي غير سعيدة.

وفـي ليلة مشابهة غابت الأم وبقى الأبُ واستطاعت الطفلة أن تـرى امـرأة غـيرَ أمها تخرج من حجرة الأبُ وعانقها الأب بشدة

وقــبلها في كل موضع قبل أن تغادر، وشعرت الطفلة بنفس الحزن يَعْصِــرها ولــم تفهم له سببا مثلما لم تفهم لِمَا رأته أيَّ معنى وظلت الصورة منطبعة في ذهنها مصحوبة بمشاعر القبح والسوءِ والرفض.

وفي مرة كانت مستضافة هي وشقيقتُها الكبرى في بيت جدتها ورأت منظرا لم تفهمه على الإطلاق رأت خالَها وهو في عِناق حارٍّ مع شقيقتها وهي تبادله القبلاتِ بطريقة لم تلحظها في الأحوال العادية وحين شعرت الشقيقة الكبرى بأن شقيقتها الطفلة رأتها في هذا الموقف اضـــطربت اضـــطرابا شديدا وتوسلت إليها ألا تحكيَ شيئا مما رأت لأبـــيها أو أمها لم تفهم الطفلةُ سر اضطراب وخوف شقيقتها الكبرى ولـــم تفهـــم سر رجائها بالكتمان وتشكَّلَ لديها يقين أن ما رأت كان خطـــأ كبيرا رغم أنها لم تفهم ماذا كان يحدث كان تقبيلا مثلما يفعل خالهـــا معها هي شخصيا حين يلقاها ويجيء لها بالحلوى التي تحبها إلا أن عـــناقه وتقبيلَه لشقيقتها الكبرى كان مختلفا بشكل ما مما أثار حزنها.

وكانت الطفلة ذاتُها تتعرض لمواقف غريبة لم تكن تفهمها وهي مواقـــف مشـــابهةٌ إلى حد التطابق وكان رد فعلها في كل مرة واحدا حـــاول الســـائق مرة ثم حاول البواب مرة ثم حاول المدرس أخيرا احتضـــانَها ولكـــنها كانت تتجمد وتسحب نفسها بقوة وترمُق الرجل بنظرة مخيفة يبتعد على إثرها. ماذا كان يبغي كل رجل منها؟ إنها لا تـــدري لماذا رفضت احتضان أيٍّ منهم لها؟ إنها لا تدري ولكنَّ شيئا مـــا كان يجعلها تشعر بالتقزز والقبح مما كان يجعل جسدها يتخشب

وتـــتملكها قـــوة وتخــرُجُ شراراتٌ حارقة من عينيها أخافت الرجال الثلاثة.

كانـــا تنوء بجهل هذه الذكريات في رأسها وفي أكثرَ من مرة كادت تَهم بان تحكيَ لصديقتها التي في مثل عمرها عما حدث ولكنها كانـــت تُحْجِـــم. شيء ما كان يمنعها من الإفصاح عن هذه الأسرار الغامضة غير المفهومة.

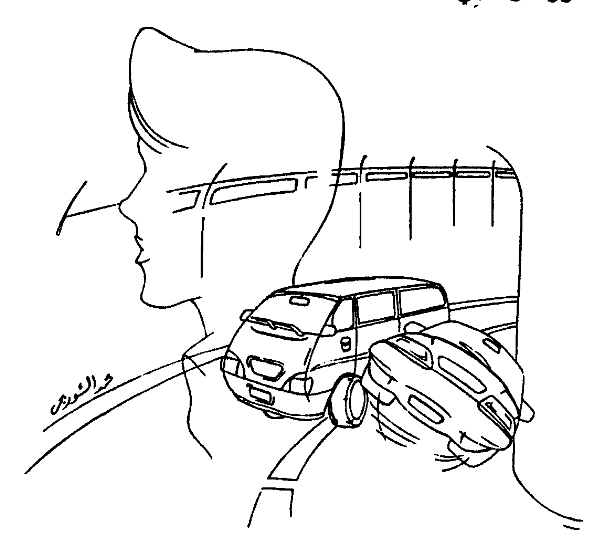


مستقبل أميرة

كان مقررا لها أن تموت في الساعة الثانيةَ عشرةَ ودقيقتين بعد منتصـــف اللــيل، وتحدد يوم الثلاثاء ٣١ من أغسطس لذلك في عام ١٩٩٧ ، أي بعـــد ميلادها بستة وثلاثين عاما وخمسة أشهر وسبعةَ عشـــرَ يوما، ونستطيع أن نحدد كم يزيد على هذه المدة التي عاشتها مـــن ساعات ودقائق إذا أجهدنا أنفسنا لنعرف الساعة التي وُلدت فيها بالضـــبط، لكـــن أعتقد أن هذا ليس مهما، إذ يكفي أن نعرف أن هذه الطفلة حين ولدت تحددت فترة بقائها على وجه الأرض بستة وثلاثين عاما وبضعة أشهر لا تستطيع أن تزيد عليها ولا تراجع في التوقيت تقديما أو تأخيرا.

لـــم يكن أحد يعرف ذلك حتى هي، بينما كانت تجول وتصول في هذه الدنيا وَفْقَ حسابات وتقديرات لها أنها قد تموت في الثمانين، وربمـــا فـــي التســـعين، ولم يكن أحد من الناس وربما كل الناس – وكانـــت الدنيا كلها تعرفها – يتوقع أن تموت في هذه السن المبكرة، وكـــان الانشـــغال كلٌ الانشغال بمستقبلها، والمتوقع أن يكون مثيراً للغايـــة مثل كل دقيقة من سنوات عمرها، خاصة بعد زواجها، كان الجمـــيع يلاحقونهـــا ويراقـــبون حاضرها ويترقبون مستقبلها توقعاً

وتخميـــناً. إذن فكـــرة موتهـــا لـــم تخطر ببال أحد، رغم محاولاتها المتكررة أن تُنْهِيَ حياتها بيديها..



وفرق كبير بين أن يحدد الإنسان اللحظة التي سيموت فيها بناء على قراره وبين أن يكون موعد موته محدداً سلفاً، ففي الحالة الثانية يأتي الموت بغتة وبدون توقع، أما في الأولى حتى وإن كانت المشيئة الإلهية قد حددت أن يموت ذلك المنتحر في تلك اللحظة، فإن عنصر المباغـــتة لا يكـــون موجوداً، أي في الساعات أو الدقائق التي تسبق لحظـــة المـــوت، فـــإن الإنســـان يكون مدركاً أنه متجه نحو الموت وملاقيه، وبالتالي لا نتصور أن يدور في ذهنه في هذه اللحظات أيُّ

مخطّطات تتعلق بالمستقبل، وهذا هو الفرق الثاني، فالإنسان حتى في الدقيقة التي تسبق موته المحددَ دون معرفته أو إرادته يرى نفسه في المستقبل وهو على وجه الأرض وليس تحتها..

وقـد يكـون مثيراً للغاية أن يتاح لإنسان ما أن يعرف موعد اللحظة التي سيموت فيها إنسان آخر، تلك الموتة المباغتة فيراقبه عن كَثَـب ويتتبع خطواته ويحاول أن يتسمع عليه ليسمع همسه ويحاول أيضـاً أن يخترق عقله ليسمع همسه لنفسه، كم يكون ذلك شيئا مثيرا للغايـة، ولعـل ذلك يتيح لنا أن نتعرف على الحكمة التي من أجلها حجـب عـنا معرفة تلك اللحظة المهمة التي من بعدها ينقطع تأثير وتأثر الإنسان بالحياة، ينمحي وجوده الجسدي، لا نستطيع أن نراه أو نتحدث معه، ينعدم المستقبل لديه، نخرجه من حساباتنا في أي تعامل، لا يكـون لـه أي نصيب في الحياة من مأكل ومشرب وملبس ومال ولهـو ولا يشـغل أيَّ حّيزٍ مكاني. أي نستطيع باختصار شديد غير مخل إن نقول أن هذا الإنسان الذي سيموت في هذه اللحظة سيصبح لا شيء.. لا شيء..

فلنتصـور أنـه أتـيح لبعضنا أن يعرف أن جميلة الجميلات وأمـيرة الأميرات ستموت في الساعة الثانيةَ عشرةَ ودقيقتين من بعد منتصف الليل في بداية يوم ٣١ من أغسطس من عام ١٩٩٧. نقترب مـنها وهي تهبط من الطائرة متعلقةً بذراع صديقها محاطةً بالحرس الخـاص بيـنما عشرات من المصورين والصحفيين يحاولون التقاط

صورة لها مع زوج المستقبل والذي ربما يعشش بين أحشائها طفلٌ له نصـــيب فيه، لاحظ هنا كلمة "مستقبل" المتعلقة بزواجها المتوقع من الناس، وربما كان يدور في رأسها في لحظة نزولها من الطائرة فكرةُ أن تكـــون زوجـــة فعلية لهذا الرجل في الزيارة القادمة لهذا المكان، وبذلك يخف الضغط عليها من المتطفلين، لاحظ أن هذه الفكرة تتعلق بالمستقبل، وهناك احتمال أن تكون قد حددت موعداً لهذا الزواج.

انطلقا من المطار إلى الفندق لبعض الراحة.

في المساء التقيا على مائدة الطعام، ما شاء الله، ما هذه العظمة والأبهة والجمال؟

إنـــه يمـــتلك هـــذا الفندق أو بالأصح سيئول إليه في المستقبل "لاحظ كلمة مستقبل".

قال لها أحبك، قالت له أحبك.. قال لها هل تأكدت من حقيقة ما في رحمك، قالت له غداً سأذهب إلى الطبيب "لاحظ كلمة غداً".. قال لها متى سنتزوج؟ قالت له مع بداية العام الجديد "لاحظ أن بداية العام الجديـــد ســـتكون بعـــد أربعة أشهر" قال لها إن القصر الجديد الذي ســـنعيش فـــيه سيكون جاهزاً بعد شهرين، قالت له إن إعداد فستان الفرح لن يستغرق طويلاً..

ويهمنا أن نقول إن هذا الحديث دار تقريباً في الساعة العاشرة والنصـــف من مساء ٣٠ من أغسطس ١٩٩٧ أي قبل اثنين وتسعين دقـــيقة من موتهما معاً، قال لها سأجعل حياتك كلها سعادة وحبًّا قالت

لــه ســأنجب لك نصف دستة من الأطفال مثلما يفعلون في بلادكم، مضى الآن نصف ساعة، أي بقيت اثنتان وستون دقيقة. مد يده لتلامس يدهــا وهو مطمئن لعدم وجود متطفلين لأن حراسه يسدون المكان، ســرت رعشة في جسدها، تمنت أن تكون بين يديه، همت أن تدعوه للفراش، لكنها أرجأت ذلك للغد، قرأ مشاعرها من عينيها فدعاها أن تقضي الليلة معه، فاعتذرت بالإرهاق ووعدت أنه في الغد لن يترك الفراش لحظة.

لاحــظ كلمــة الغد، ولاحظ أن ما كانا ينويانه في الغد سيحقق لهمــا مــتعة مــن متع الدنيا.. بقي من الوقت حتى الآن سبعَ عشرة دقيقة، مرت دقيقتان من الصمت، بقي من بقائهما أحياء خمس عشرة دقيقة، دعاها لنزهة حتى الفجر "لاحظ كلمة الفجر" أخرج من جيبه هدية عكست كل الضوء الذي كان يغمر المكان، ثمنها يكفي لإطعام مديــنة لعام كامل، فرحت بها كطفلة، لأنها في الحقيقة طفلة رغم أن عمرها أوشك على الانتهاء، نهضا، زاغا من الباب الخلفي هروباً من المتطفليــن "متطفل هي الكلمة البديلة للمصور الصحفي"، بقي خمسُ دقائق، احتضنها في السيارة، صمم ألا يتركها تفلت منه الليلة؟، رتب خطة لإقناعها بمرافقته حتى الصباح "لاحظ كلمة الصباح" بينما بقي علــى استمرارهما أحياء دقيقتان أو ربما أقل "شعرت بسعادة غامرة وقالت لنفسها أخيرا سأعيش حياة مستقرة مع هذا الرجل الذي يحبني، بــاقٍ خمس ثوان، أحاط خصرها بذراعه وضغط على بطنها برفق، فقالــت وهـــي تضحك دع طفلنا نائماً حتى الصباح، لم تنه ضحكتها،

وحدث الاصطدام   المروع في الساعة الثانيةَ عشرةَ ودقيقتين تماماً،
لــيس قبل الموعد بثانية واحدة، وليس بعده بثانية، وانتهى كل شيء،
لن يسهرا معاً حتى الصباح، ولن تتحقق أمنيته بالنوم معاً، ولن يسكنا
القصــر الجديد، لن تُزين صدرَها بهديته الثمينة جداً التي يكفي ثمنها
لإطعام مدينة بأكملها ولمدة عام عامل.

الأصدقاء الثلاثة

"مـــا هـــو غائـــر فـــي النفس عميق عميق.. لا يستبينُ حتى لصاحبه لا تطاوله عين أو يد، واستراق السمع لا يرجع إلا بالصمت المريـــب لا أصدقاء ولا أنوار وإنما ظلام حالك، متاهة ذات دروب ومســـالكَ لا يجتازها أحد، بحار عميقة مهلكة لا يلمس أعماقها أمهر الغواصين".

كانـــا اثنيـــن ثم صارا ثلاثة، الاثنان كانا واحدا والثلاثة أيضا كانوا واحدا.. الأرواح ممتزجة رغم المسافات بين الأجساد، قلب واحد وعقـــل واحـــد وشعور واحد لا يفترقون إلا عند النوم، وما بين نوم ونوم فهم يرتشفون سعادة أن يكونوا معا، جميلةُ الجميلات وفارسان نبيلان قل عن ثلاثتهم إنهم أصدقاء أو أصحاب أو أحبَّاء والأفضل ألا تقـــول ثلاثة ولكن قل واحد إذا رأيت واحدا منهم فكأنما رأيت الثلاثة وإذا رأيت الثلاثة رأيت كل واحد منهم على حدة، هكذا صباح مساء فـــي قاعات الدرس وحين اللهو ذلك اللهو البريء الذي لا يكون إلا بريـــئا لأنهـــم ثلاثـــة نفوس صافية.. وقلوب طيبة.. ونيات حسنة.. وأجساد مصونة.

البداية صديقان شاب وشاب ثم انضمت إليهما الثالثة شابة جميلة فصاروا ثلاثة ولدان وبنت وكأنهم ثلاث أولاد أو كأنهم ثلاثة بنات أي سقط البعد الجنسي بينهم من فرط الصداقة ومن عمق مشاعر الأخوة، تراخت وتراجعت تلك الأحاسيس التي تثور وتتطور بين رجل وامرأة.

وتدخلت الطبيعة بشدة فحركت أحاسيس خاصة لشاب منهما نحو الفتاة واستجابت الفتاة بنفس الأحاسيس، ميلٌ جارف من نوع خاص.. ذلك النوع الذي لا ينشأ إلا بين رجل وامرأة فيقرران أن يظلا معاً طول الحياة، فقررا أن يتزوجا وأعلنا صديقهما الثالث فتلقى الخبر بفرح صادق فرح غير مشوب بغيرة أو حسد، فرح مع تمن حار جدا بالتوفيق ولكن ظلوا ثلاثة أصدقاء أحباء أصحاب.. وزاد على ذلك شيء خاص بين اثنين منهما دون الثالث فتكونت وحدتان بدلا من وحدة شاب ثم الشاب الآخر ومعه فتاته ولكن الوحدتين ظلتا كيانا واحدا.

وتطورت الأحداث في الاتجاه الطبيعي أنهوا دراستهم تزوج الشاب والفتاة ظل الشاب الثالث بلا زواج.. لم يستطع ولم يستطيعوا إدخال طرف رابع بينهم ظلوا على ثلاثتهم لا يفترقون إلا حينما يذهب الشاب والفتاة اللذان تزوجا إلى فراشهما.

وحاول الشاب الأعزب أن تكون له رفيقته التي يتزوجها فلم يستطع أبى أن تستحوذ فتاة على جزء من قلبه الذي وهبه كله لصديقيه لم يكن يدري سر الانغلاق القلبي الذي منع أي أنثى من

الاقـــتراب، لم يشعر في أي لحظة بأي أحساسيس تجاه أي أنثى.. لم تستثره أي مظاهر أنثوية من أي فتاة سواء أكانت تضاريس جسد أو نـــبرة صـــوت أو جمـــال وجه أو شقاوة عينين أو رائحة عرق.. لا شيء.. لا شيء بالمرة.. كل النساء وكل الرجال سواءٌ عنده.. ورغم ذلــك لـــم يقلق على نفسه.. كان يشعر في قرارته أنه يحمل في ثنايا جســده وثــنايا نفســه ذلك الميل الجارف ناحية الأنثى وذلك التمني الضـــاغط نحـــو الارتباط الخاص ولكنه لم يستطع ذلك مع أي أنثى مهما كانت درجةُ تميزها وتفوقها الأنثوي.

ولكـــن ذلك الثالثَ الوحيد كان يرى في صديقته زوجة صديقه المـــثالَ الأكمـــل للأنوثة ليست الأنوثةَ التي تحرك الجسد فقط ولكنها الأنوثـــة التي تحرك الروح قبل الجسد ولذا عاش أخيلة غامضة غير محسوسة بشكل مباشر.

وكأنها أشباح أو أطياف تحوم من بعيد وتأتيه في الإحلام أكثر ممـــا تأتـــيه في الواقع وصحا يوماً من نومه في حالة من الانزعاج الشـــديد حينما حلم أنه يقبل صديقته زوجة صديقه.. وكاد ينتحر في يـــوم آخر حينما حلم أنه يعاشرها ولكنه قال لنفسه أضغاثُ أحلام لا معنى لها.

ولكـــنه ضـــبط نفسه أكثر من مرة وهو مستيقظ متابعاً لطريقة مشْيتها والتي حركت في داخله شعوراً بالجمال وضبطَ نفسَه أكثر من مرة أيضاً وهو يستنشق بعمق عطرها ولم يسامح نفسه في مرة حين

تحرك في باطنه وبين أحشائه إحساس غامض بينما هو يتأملها وهي بلباس البحر.

ثــم اجتاحته موجة من المشاعر السامة كرياح الصحراء التي يُطلق عليها السَّمُومُ والمحملة أو المثقلة بذرات رمال شديدة السخونة تكــوي الوجوه وتسد العيون تجمعت لديه هذه المشاعر السامة تجاه صديقه فرآه وكأنه عدو استسخفه واستثقل دمه ماتت لديه أي مشاعر طيبة تجاه صديقه، رآه منفراً.

ومــلأه الغضب، كل ذلك وهو لا يدري مصادر هذه المشاعر الســامة ولا يعــرف من أي اتجاه هبت عليه وكلما زادت مشاعره الغاضــبة الحانقة تجاه صديقه صاحب ذلك ازدياد في ميله الغامض الســار المحبب لروحه وجسده معاً تجاه صديقته زوجة صديقه حتى حلم في ليلة أنه يقتل صديقه ويتزوج من زوجته.

ولا يوجــد لديــنا أيضاً تفسير لماذا بدأت الزوجة تشعر بفتور تجاه زوجها ووصفت في يوم نظراتِه بأنها ميتة وأن روحه خاملة ثم أخــذت تقــارن بيــنه وبين صديقهما الثالث وعند هذه النقطة لم يعد الثلاثة واحداً بل أصبحوا ثلاثة وقلوبُهم شتّى ثم أصبحوا اثنين الزوج فــي جانــب والــزوجة والصديق في جانب آخر ثم طلبت الزوجة الطلاق ثم تزوج الصديق من طليقة صديقه.

وفــي هــذا الــيوم بالذات لم يظهر قمر ولم تسطع شمس ولم تحمــل أي امرأة ولم تنتقل أي حبوب لقاح من مكانها ويقال إن مياه

الأنهـــار قـــد تسممت ومات كل من شرب في هذا اليوم مباشرة من النهر.

ولا أحـــد يعرف حتى الآن لماذا حدث كل ذلك كيف مات حب وظهر حقد لماذا تعكر الصفاء وطغى الحسد، أي مشاعر كانت غائرة في النفس ولم نكن نعرف عنها شيئاً لأن ما كان ظاهراً على السطح كان مخالفاً تماماً للحقيقة.



المعطف

الطبـيعة السوئِيةُ للإنسان تُفْصِح عن نفسها وقتَ الأزمات حتى وإن تأخر ذلك بعض الوقت.. والأزمة قد تكون موقفاً حياتياً مصيرياً يكشف عن المعدن الحقيقي للإنسان أو أصله أو كيانه الفعلي.. وهذا يسـاعد الإنسـان علـى أن يكتشـف نفسه، ويساعد الآخرين على اكتشافه.. إذن الأزمة هي لحظة كشفٍ للكينونة.

كانـا فـي البداية زوجين سعيدين.. متقاربين في العلم والثقافة والمكانـة الاجتماعية.. جمعهما في البداية حب رومانسي أفضى إلى زواج.. وكانـت علاقـتهما الزوجية متشبعة بالمفاهيم الأساسية التي تحكم علاقة الرجل بالمرأة في مجتمع شرقي.. ملك هو زمام الأمور وأسلمت هي له قيادة السفينة، كان يعمل أكثر ويكسب أكثر لينفق كل ماله لدعم الأسرة التي ازداد عددها إلى أربع في سنوات قليلة.

كانت حلوة الملامح ذات صوت رقيق، ومِشْيَة رشيقة، ولفتات أنـثوية لا تخفـي علـى عين خبير، وإن كانت محافظة في ملبسها ومسـلكها بما يتفق مع ما هو متعارف عليه من سلوك ملتزم لزوجة مـن أسرة متوسطة اهتم والدها بغرس وتأكيد أخلاقيات هذه الطبقة

التـي تقضـي بالاحـترام الكامل للزوج والتبعية له والاقتصار في العلاقـات الاجتماعـية، والاقتصـار علـى عمل يناسب المرأة ولا يـتعارض مـع أدائها وإتقانها وتفانيها في واجباتها المنزلية المتعلقة بالزوج والأبناء.

أما هو فقد كان طيب القلب تميزه رحمته عن ثقافته، وإنسانيته عـن براعته في العمل.. كان تفوقه الحقيقي في كونه إنساناً حقيقياً.. كان صاحب طموح استطاع أن يجعله متوازناً مع قدراته فخلت حياته مـن الأرق والصـراع والمنافسة المميتة إلا أنه عُرف بأدائه المتقن والمخلـص لعمله، وكان ذلك سر تقدمه النسبي السريع في العمل إلا أنـه لـم يتـبوأ مركزاً قيادياً مرموقاً حيث كانت لا تزدَهيه أبداً هذه المناصـب وكـان غير موهوب في أهم وسائل القفز إلى أعلى وهو النفاق.

ورغـم تواضـعه إلا أنه كان سيد بيته.. برحمته قبل قسوته، وبـتفهمه قـبل عناده، وباتزانه قبل اندفاعه، وبحكمته قبل تهوره.. ورث ذلك عن أبيه الذي كان مطاعاً مهاباً في بيته رغم أن صوته لم يعلُ في يوم من الأيام.

ولم يغضِب زوجته ولو لليلة واحدة، ولم يوجه لها أبداً نقداً أو توبيخاً وإنما كان يحبها حباً جماً يمتدحها ويعلي من شأنها ولا يطيق الابـتعاد عنها، وكانت هي نعم الزوجةُ التي توافرت فيها كل شروط المرأة الصالحة في هذا العصر.



مشــى على وتيرة أبيه وكانت زوجته قريبة الشبه من أمه في أنوثــتها الحقيقــية والتزامها.. إلا أن طموحها كان أزيد من الحدود المســموح بهــا للمرأة في هذه المجتمعات.. ساعدها ذكاؤها وسعة اطلاعهــا مع حب شديد لمعنى التفوق حيث كانت المميزة دائماً في دراستها.

وبطــريقة طبيعية تقدمت سريعاً في ارتقائها المناصب.. حتى وصــلت وهي مازالت في الأربعين إلى قمة الهرم.. وهذا معناه أنها تفوقــت على زوجها.. تقدمت عنه بأكثر من عدة خطوات.. وكانت طبــيعة عملها أن تقود فريقاً من الرجال وأن تأمر فتطاعَ وأن ينافقها المعــاونون لهــا فخلعوا عليها صفاتٍ طارت بجزء من عقلها فظهر عليها بعض التغير.

تفهــم الزوج في البداية ظروفها.. ساعدها بتسامحه واتزانه.. ومع استمرار تقدمها واشتهارها فقدت نصف عقلها أو يزيد.. أما هو فلــم يعد يتحمل.. واضطربت حياتهما اضطراباً شديداً.. وبدأت هي في التنصل من بعض المفاهيم المتعلقة بالرجل والمرأة فبدأت تروج لفكــرة المساواة ثم ازدادت عليها أحقيةُ المرأة في التقدم على زوجها وإمكانــياتها فــي القــيادة وصــاحب ذلك ثورتها واعتراضها على الأوضاع السائدة والتي حكمت علاقتها بزوجها منذ البداية.

اشــتعلت نــار الفتنة في البيت الهادئ السعيد.. انطوى الرجل على نفسه حزناً وكمداً ولكن هذا لم يمنعه من ثورات حادة في بعض

الأحـــيان حيـــن يفيض الكيل.. أما هي فقد تمادت واستهلكت الجزء المتبقـــي مـــن وقـــتها في تسمين علاقاتها العامة التي تساعدها على المزيد من القفز إلى أعلى.

حاول أن يُذَكِّرها بأنوثتها أثناء وجودهما في الفراش فأبت.. ثم رفضت معاشرته تماماً تملصاً من سيطرة مشاعر تتناقض مع وضعها الحالي، وهروباً من لحظة ضعف قد تنتابها وتضعها في صراع مع المتغيرات التي طرأت على بعض مفاهيمها وتأكيدها على قدرة المرأة علـــى الاســـتغناء عن الرجل واستقلاليتها بحياتها وأن أهمية الزواج تسقط إذا تعارض ذلك مع نجاح المرأة وتفوقها، وإنه من الواجب أن تُلْغَى كلمةُ أنوثة من القاموس الإنساني أو على الأقل ألا تترادف كلمة أنوثـــة مع الجمال والرقة والوداعة والاستسلام عاطفياً للرجل.. وأنه فـــي حالـــة انفصـــال كلمة أنوثة عن كل هذه المعاني فلا معنى أن تـــترادف كلمـــة رجولة مع القوة والسيادة والعطاء المطلق للمرأة.. وبالتالي تصبح كلمة رجولة مترادفة ومتساوية مع كلمة أنوثة.

وجاء يومٌ مهم في حياتها.. أزمةٌ قد تبدو بسيطة.. وليست أزمة حياتية ولا مصيرية كانت في صحبته أو كان هو في صحبتها وأرادا أن يتنفســا بعـــض الهواء.. وتغير حال الجو.. ساد صقيع مفاجئ.. وأســـرفت الســـماء بســـخاء في عطائها المائي.. تقلصت عضلات الـــزوجة من شدة البرودة حيث كانت قد أهملت في احتياطاتها ضد مطر مفاجئ حتى لا تفسد مظهرها.. أما هو فبحكم تكوينه المتوازن

فقـــد حسَـــب حساب التقلب المفاجئ مثل كل شيء في الحياة فارتدى معطفاً نصف قديم متوسطَ الحال آثار استياءها ولكنه أصر عليه.

كـــادت أن تمـــوت من شدة البرد.. لا شيء يحميها.. شعرت بضعف شديد.. ابتلّت فبدت في عينيه كطفلة تستحم.. رأي في وجهها ملامـــح المرأةِ التي عرفها في البداية.. وبتلقائية شديدة خلع معطفه.. أحاطها به.. نظرت إليه باندهاش.. صدرت منها حركة تلقائية دفعت بها يدَه.. ولكنها عادت واستكانت شعرت بالدفء والسكينة.. أحاطها بذراعه وطواها تحت إبطه فشعرت بمزيد من الدفء والنشوة.. عادا إلـــى البيت.. سعت إليه في الفراش.. وفي هذه الليلة استعادت كامل أنوثـــتها التي كانت قد فقدتْها تماماً.. وفي الصباح أعدّتْ له الإفطار والشاي.